
45
روايات عالمية للجيب
قلب الظلام
تأليف : جوزيف كونراد
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

روايات عالمية للجيب

سلسلة جديدة ، تقدم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمى ، فى مختلف صنوفه ..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية ..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال ..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير ..

ومن الشرق إلى الغرب ..

وإلى الحضارة ..

وإليك ..

د. نبيل فاروق

المؤلف



ولد (جوزيف كونراد) فيما يعرف بـ (أوكرانيا البولندية) ، وهى ـ كما يدل الاسم ـ منطقة تقع بين روسيا وبولندا . وكانت أسرته تنتمى لطبقة تدعى (زلاختا) من متكلمى البولندية ، وهى طبقة نبيلة لكنها لم تعرف بالثراء . كان أبوه سياسيًا متوسط القيمة وأديبًا مغمورًا لم تترك كلماته أى أثر لدى القراء ، لكنها تركت أعظم الأثر على ابنه (جوزيف) .. الذى ولد عام 1857 .. والذى قدر له أن يكون أديبًا عظيم الشأن .

كانت علاقة الصبى بالمجتمع البولندى سطحية وإن هوى الموسيقا بشكل خاص ، وارتبطت فى ذهنه بصورة أمه الجالسة إلى البيانو ، والتى كتب عليه أن يفقدها بعد أعوام .

بسبب السياسة تم نفى الأسرة من بولندا ، وتوفيت الأم بالدرن بينما (جوزيف) فى سن السابعة ، وتبعها أبوه فصار (جوزيف) الصغير يتيمًا فى الحادية عشرة من عمره . وكان على عمه المحب أن يعنى به .

عام 1874 يتجه الصبى إلى فرنسا حيث يتعلم هناك الفرنسية وأصول الملاحة ، ويتعرف مجموعة من الأدباء البوهيميين الذين جعلوه يعرف معنى فن الدراما . وسرعان ما صار خليطًا من بحار وفنان ، ولسوف يبقى هكذا طيلة حياته .

عام 1878 يرتحل الفتى إلى إنجلترا راغبًا فى أن يعمل ضابطًا على السفن البريطانية . فصارت حياته لمدة عشرين عامًا دورة من الملاحة البحرية ثم الراحة على اليابسة . وكان موسوسًا بالحاجة إلى المال على نقيض أبيه الذى كان يمقت المال بشدة .

ومن الغريب أنه قرر أن يكتب - أول ما كتب - بالإنجليزية لغته الثالثة بعد البولندية والفرنسية ،

وهو ما يدل على أنه اختار بريطانيا لتكون وطنه الثانى والأخير . وبعد رحلة إلى الكونغو عام 1890 كتب (قلب الظلام) .. وكان يدين الاستعمار بعنف فى كل كتاباته فى تلك الفترة ، وهو ما سنراه بوضوح فى هذه الرواية .

بعد وفاة عمه الثرى نال إرثًا مكنه من أن يتفرغ للكتابة تمامًا . وكانت الكتابة معاناة خاصة بالنسبة له بسبب عدم تمكنه المطلق من أسرار اللغة الإنجليزية ، وقد جعله هذا أكثر انهماكًا من أن يعنى بحياته الأسرية والاجتماعية . ويصف الانتهاء من روايته (نوسترومو) بأن (الأصدقاء هنئونى كأنما شفيت من مرض خبيث ..) ..

كوّن صداقات مع كُتاب مهمين مثل ستيفن كريج وهنرى جيمس . ثم حملته الأعوام إلى أمريكا حيث مات عام 1924 بنوبة قلبية .

كتب كونراد 13 رواية و28 قصة قصيرة ، وكان

الراوى دومًا فى أغلبها بحارًا متقاعدًا . فى قصته (لورد جيم - 1900) يصف لنا معاناة بحار يحاول جاهدًا تصحيح خطأ ينم عن الجبن ارتكبه فى شبابه فى أثناء غرق مركب فى البحار الشرقية . فى قصته (العميل السرى - 1907) يحكى عن فوضوى يعيش فى لندن ، وقصته (النصر - 1915) تدور فى البحار الجنوبية ، أما قصته (تحت عين غربية) فتحكى عن تسلط روسيا فى القرن التاسع عشر ، أما أشهر قصصه تقريبًا فهى (قلب الظلام - 1902) - التى بين يديك الآن - وتظهر رحلة رهيبة فى نهر إفريقى ، هى فى الآن ذاته رحلة لمعرفة مدى فساد الإنسان وقسوته .. إن قلب الظلام هو فى الحقيقة نفوسنا .

لست متأكدًا فى الحقيقة مما إذا كانت السينما قد قدمت هذه الرواية ، لكن هناك معالجة ناجحة قدمها (نيكولاس روج) للتلفزيون عام 1994 ، كما أن رائعة فرانسيس فورد كوبولا (سفر الرؤية الآن - Apocalypse Now) تعتمد على فكرة الرواية بشكل كبير ، حتى إن النقاد

يقولون إنك لاتستطيع فهم الفيلم حق الفهم مالم تقرأ هذه الرواية أولاً ، وإن كان الفيلم قد تحرر بلاحدود من النص الأصلى ، وجعل الأحداث تدور فى فيتنام بدلاً من الكونغو ، والقوات الأمريكية تلعب دور شركة العاج ، وقد قام (مارلون براندو) بدور (كورتز) .

د. أحمد خالد توفيق

أشهر أعمال جوزيف كونراد

المنبوذ 1896	عبد النار سبسوس 1898
لورد جيم 1900	الشباب 1915
النصر 1915	الأسهم الذهبية 1919
الروفر 1923	بعض الذكريات
	(سيرة ذاتية) 1912
قلب الظلام 1902	العميل السرى 1907

المصادر :

- من الأدب العالمى . د. عادل محمد عطا إلياس . قصص عالمية . الهيئة المصرية العامة للكتاب . 1988 (عرض نقدى شائق لـ 25 عملاً من أهم أعمال الأدب العالمى ، مع ملخص لا بأس به ، ونبذة عن المؤلفين) .
- شبكة الإنترنت .



تأرجحت (نيلى) - وهى مركب شراعى صغير - متجه إلى مرساه دون أن تهتز أشرعته ، وكانت الأمواج قد هدأت والريح قد استقرت تقريبًا . ولم يعد أمامه إلا أن يقبع فى انتظار المد .

كانت نهاية نهر (تيمز) المتجهة للبحر تمتد أمامنا كأنما هى بداية طريق بحرى بلانهاية . وفى عرض البحر بدا كأن السماء والبر يمتزجان دونما نقطة التقاء .. وثمة غيمة تستريح فوق الشطآن المتجهة إلى البحر ، والهواء كان مظلمًا فوق (جريفسند) يزداد كثافة فى كآبة جنائزية فوق أكبر وأعظم مدينة على وجه الأرض .

كان مدير الشركات هو قبطاننا ومضيفنا ، وقد راقبنا نحن الأربعة ظهره فى انبهار وهو يقف على مقدمة السفينة ميممًا وجهه شطر البحر . ففى البحر

كله لم يكن ثمة ما هو أكثر (بحرية) منه .. كان هو القائد الذى يمثل الثقة مجسدة بالنسبة لبحارته ..

كان البحر يربط فيما بيننا ويوحد قلوبنا ويجعلنا نقبل ما يقوله كل منا .. كان المحامى رجلاً يتمتع بالكثير من المزايا ، لهذا كان قد استولى على الوسادة الوحيدة فى السفينة بالإضافة إلى النوم على الحشية الوحيدة فيها ، أما المحاسب فكان يحتفظ بصندوق من قطع الدومينو بالإضافة إلى ولعه بالنحت على العظام . أما (مارلو) فكان رجلاً نحيلاً شاحبًا له خدان غائصان وسمت يوحى بالتقشف .. وقد جلس مستندًا إلى الصارية ..

تأكد القائد من أن المرساة محكمة التثبيت ، من ثم عاد ليجلس بيننا .. تبادلنا بعض الكلمات الكسول ثم ساد الصمت .. ولسبب ما لم نبدأ اللعب بالدومينو .. لقد شعرنا بحاجة إلى التأمل وبأننا لانصلح إلا للحملقة الهادئة فيما حولنا .. كانت السماء عبارة عن مساحة شاسعة من الضوء الذى لا يشوبه شىء ، والماء يلتمع فى هدوء ..

وأخيرًا بانحناءة لا تدرك غاصت الشمس لأسفل ، واستحال لونها من الأبيض إلى الأحمر الذى لا يبعث دفئًا ولا شعاعًا من حوله ، وكأنها ستنطفئ فجأة ..

ونظرنا إلى المياه ليس فى ضوء اليوم الذى يأتى ويرحل للأبد ، ولكن فى ضوء (أغسطس) الذى يبعث الذكريات الدائمة .. فليس أسهل على رجل « اقتفى أثر البحر » - كما يقول التعبير الشهير - من أن يستحضر روح الماضى العظيمة على ضفاف نهر التيمز . فكم من رجال ونساء حمل هذا النهر .. لقد خدم كل هؤلاء الذين تفخر بهم الأمة .. من سير (فرانسيس دريك) حتى سير (جون فرانكلين) .. كلهم فرسان .. نبلاء البحر .. لقد حمل كل السفن التى يلمع اسمها كالجواهر فى ظلام الزمن . وتلك السفن التى لم ترجع قط .. أية عظمة لم تبحر عبر هذه المياه نحو غموض الأراضى المجهولة ! أحلام الرجال .. بذور الكومونويلث وأصول الإمبراطوريات .

غربت الشمس وبدأت الأضواء تلمع عبر الشط ..

وظهرت المدينة العملاقة من بعيد كأنها هى النذير .. وهج رهيب تحت النجوم ..

قال (مارلو) فجأة :

- «وهذا المكان أيضًا .. كان من الأماكن المظلمة على الأرض .. »

كان هو الوحيد بيننا الذى لم يزل «يقتفى أثر البحر» .. لو كان هناك ما يعيبه فهو أنه لا يعبر عن طبقته جيدًا .. إن أغلب البحارة يكونون من الطراز الميال إلى البقاء حيث هو .. عقولهم من طراز (ابق فى الدار) ودارهم هى سفينتهم .. ووطنهم هو البحر .. بالنسبة لهم تكفى جولة قصيرة على الشط لتخبرهم بسر القارة كلها .. وغالبًا ما يجدون هذا السر لا يستحق أن تعرفه ..

أما (مارلو) فكان مولعًا بالترحال .. وكان مولعًا بكل جديد .. ولم تبد ملاحظته مفاجأة ، فلم يكلف أحدنا نفسه بأن يعلق أو يهمهم .. كان يقول الآن :

- «كنت أفكر فى أزمنة قديمة جدًا ، حين كان الرومان يأتون هنا .. منذ 1900 سنة .. منذ عهد .. ماذا تسمونهم ؟ الفرسان .. حين كان هناك ظلام . تخيل شعور قبطان .. ماذا تسمونها ؟ السفن الرومانية ذات المجاديف على الجوانب تعبر البحر المتوسط ، ثم يؤمر بأن يتجه شمالاً إلى بلاد الغال ... تخيله هنا فى نهاية العالم أمام بحر بلون الرصاص وسماء بلون الدخان .. وسط الأخطار والمتوحشين ، ليس من الكثير ليؤكل ، وما من ماء يشرب إلا مياه (التيمز) . لابد أن الرجال كانوا يموتون كالذباب هنا .. لكنه أنجز مهمته .. أنجزها بنجاح ، ومن دون تفكير كثير .. ربما جاء التفكير فيما بعد كى يبالغ فى وصف ما مر به فى حياته . لابد أنه كان يحلم بتحقيق مهمته والترقية .. ربما كان له أصحاب مهمون فى روما ، لو أنه ظل حيًا» ..

وحرك كفه لتتجه نحو السماء ، فبدا بساقيه المطويتين تحته كأنه بوذا يعظ مرتديًا ثيابًا أوروبية ومن دون زهرة اللوتس .

- «فكروا فى أنه ما من واحد منا سيشعر بهذا .. ما يحمينا هنا هو الكفاءة .. لكن هؤلاء الشباب لم يكونوا استعماريين ، فقط كانوا غزاة .. لم يحتاجوا إلا للقوة الغاشمة .. أخذوا ما حصلوا عليه من أجل ما يجب أن يحصلوا عليه .. كانت أعمالهم مجرد سطو مسلح .. قتل على نطاق واسع .. أن تستلب الأرض من هؤلاء الذين لهم سحنات مختلفة أو أنوف أكثر تفلطحًا من أنوفنا . ليس هذا جميلاً لو فكرت فيه .. »

وكف عن الكلام .. بينما انزلقت ألسنة اللهب فى النهر .. لهب أخضر ولهب أحمر ولهب أبيض .. تبحث عن بعضها .. تتقاطع .. المرور فى المدينة العظيمة يمضى فى الليل البهيم فوق النهر الذى لا ينام . وجلسنا صامتين ، فلم يكن ثمة ما نعمله حتى ينتهى المد ، لكن الرجل قال بعد صمت طويل :

« أعتقد أنكم تذكرون أننى كنت لفترة بحارًا فى المياه العذبة .. »

وعرفنا أن قدرنا سماع قصة من قصص (مارلو) المبهمة قبل أن يبدأ الجزر :

« لا أريد أن أضايقكم بأن أحكى ما حدث لى بشكل شخصى .. » - هكذا بدأ وقد بدا فى ملحوظته ذلك العيب الذى يعانى منه أكثر ساردى القصص ، الذين يجهلون ما يحب المستمعون سماعه - « لكن كى تعرفوا تأثير ذلك على ، لابد من أن تعرفوا كيف وصلت هناك ، وما رأيت ، وكيف مضيت فى ذلك النهر إلى حيث قابلت ذلك الشاب .. كانت أبعد نقاط ملاحتى وخبراتى .. ولقد ألقت بالضوء على أفكارى .. وبرغم هذا كانت خبرة كئيبة مثيرة للأسى .. بل كانت مبهمة لكنها ألقت بالضوء ..

« كنت وقتها قد عدت إلى لندن بعد رحلة فى المحيط الهندى وبحار الصين طالت ستة أعوام ، وكنت أزوركم يا شباب فى دياركم وأعطلكم فى أعمالكم .. وبعد فترة تعبت من الراحة ، وبدأت أبحث عن سفينة .. لكن السفن لم تعرنى اهتمامًا ..

«حين كنت شابًا كنت مولعًا بالخرائط .. كنت أحملق بالساعات فى خارطة أمريكا الجنوبية أو إفريقيا .. وأنسى نفسى فى لذة الاستكشاف . وكانت هناك أماكن فارغة كثيرة على الأرض فى ذلك الوقت ، فكنت أضع إصبعى على الخارطة وأقول لنفسى : حين أكبر سأذهب هناك .. »

القطب الشمالى كان من هذه الأماكن .. حسن .. لم أزره قط ولا أنوى هذا الآن .. حلمت كذلك بأماكن عند خط الاستواء وسواه ، وبعض هذه الأماكن زرتها .. لكن بقى أكبرها وأكثرها فراغًا .. حقًا فى ذلك الوقت كان لم يعد مكانًا فارغًا .. لقد امتلأ منذ صباى بالأنهار والأسماء .. لم يعد مكانًا يحلم الطفل به .. صار مكانًا من الظلمات(*) ..

لكن كان به نهر .. نهر قوى كبير يمكنكم أن تروه على الخارطة كأنه أفعى عملاقة مفرودة .. رأسها فى البحر وذيلها ضائع وسط الأرض .. هذا النهر كان

(*) أحداث الرواية التالية ستدور فى الكونغو البلجيكية .. لكن كلام الراوى أقرب إلى العموم والإبهام ..

يفتننى وكنت أقف أمامه كأننى طائر أحمق جاهل يقف أمام ثعبان عملاق .. ثم تذكرت أن هناك شركة تجارية كبرى تعمل على هذا النهر .. قلت لنفسى إنهم بالتأكيد يملكون سفنًا عملاقة .. قوارب بخارية ! لِمَ لا أطلب أن أقود أحدها ؟

كنت أمضى ساعاتى فى (فليت ستريت) لكننى لم أستطع طرد الفكرة .. لقد خلبتنى الأفعى ..

تعرفون أننى لست هذا الطراز من الرجال .. أحب أن أفعل ما أريد بنفسى دون معونة من أحد ، لكن كان لى أصدقاء يمكن أن يساعدونى ، وقد استعنت بهم . لكنهم لم يسدوا لى عونًا .. عندها اضطررت إلى الاستعانة بالنساء ! تصوروا ! أنا ألجأ إلى النساء كى يساعدننى ! كانت لى عمة .. امرأة رقيقة متحمسة ، وقد كتبت لى تقول :

ـ « عزيزى .. أنا أعرف زوجة رجل مهم جدًا فى الإدارة .. وله نفوذ قوى هناك .. »

كانت مصممة على أن تبذل جهدها كى أعين ربانًا على قارب بخارى فى النهر .. ما دمت أرغب فى هذا .

وكانت الشركة تبحث عن ربان بعد ما قتل أحد ربابينها فى مشاجرة مع الأهالى المحليين ، وكانت تلك فرصتى .. وفيما بعد ـ بعد أشهر ـ استرددت ما تبقى من جثته وفهمت أن سبب المشاجرة كان خلافًا بصدد الدجاج . نعم .. من أجل دجاجتين سوداوين .. لقد حسب القبطان أنه خدع فى الصفقة .. كان دانمركيًا اسمه (فريسلِيفين) ، وهكذا اقتاد زعيم القوم إلى الشاطئ وأوسعه ضربًا .. يجب أن أقول هنا إن (فريسليفين) كان من ألطف وأرق القوم الذين عرفتهم فى حياتى ، لكن يبدو أنه أراد أن يبدو حازمًا بشكل ما .. لهذا أوسع الزنجى العجوز ضربًا بلا رحمة ، بينما قومه يرقبونه .. حتى فقد أحد الشباب أعصابه ـ وكان ابن الزعيم ـ وهو يسمع صراخ أبيه ، لذا أخرج رمحه وقذفه ليستقر بسهولة بين لوحى كتفى القبطان ..

فر الزنوج إلى الغابة بينما فر القارب البخارى تحت إمرة المهندس ، ومن وقتها لم يكلف أحد نفسه مشقة استعادة بقايا القبطان ، حتى جئت أنا مكانه ولم أستطع تجاهل الأمر .. لقد كان العشب الآن ينمو من بين ضلوعه .. كل العظام كانت هناك ..

أما القرية فكانت خالية تمامًا .. هجرها الرجال والنساء الذين استبد بهم الهلع . ولا أدرى ما صار إليه أمر الدجاجتين . على كل حال حصلت على الوظيفة قبل أن آمل فى الظفر بها .

خلال 48 ساعة كنت أتوجه لمقابلة مستخدمى كى أوقع الأوراق وأنال الوظيفة . لم أجد عسرًا فى العثور على الشركة لأنها كانت أكبر شىء فى المدينة ، وكل من ألقاه كان مليئًا بها .. كانوا على وشك امتلاك إمبراطورية وراء البحار .

شارع ضيق مهجور فى الظلال ، وبيوت عالية نوافذها لا تحصى عليها ستائر من الطراز الفينيسى ..

صمت الموت .. دخلت أحد هذه الشقوق ، وصعدت فى درج ممسوح ، ودخلت أول باب قابلنى .. كانت هناك امرأتان إحداهما بدينة والأخرى نحيلة ، تجلسان على مقاعد من قش وتحيكان الصوف الأسود . نهضت النحيلة ومشت نحوى وهى مستمرة فى الحياكة وعيناها لأسفل ، حتى إننى حاولت التنحى عن طريقها كما تفعل أنت مع من يمشى فى أثناء النوم .

اقتادتنى إلى قاعة انتظار ، بها منضدة فى الوسط وخارطة فى ركن القاعة عليها كل ألوان قوس القزح . بقع حمراء وبقع زرقاء وبقع بنفسجية تخبرنا أين يشرب المستكشفون الشجعان أنخاب النصر . لكنى لم أكن ذاهبًا إلى مكان من تلك الأماكن .. كنت أقصد الأماكن صفراء اللون . إلى حيث الصمت والموات .. حيث النهر هناك فاتن قاتل كالثعبان .. إننى فى المحراب .

أرى كتلة من البدانة الشاحبة فى عباءة ، وأعرف أن هذا هو الرجل العظيم نفسه .. صافحنى وغمغم بصوت خفيض على قدر ما أتذكر ، وقد راقت له فرنسيتى فتمنى لى (بون فوياج) .



أرى كتلة من البدانة الشاحبة فى عباءة ،
وأعرف أن هذا هو الرجل العظيم نفسه

ثم وجت نفسى من جديد فى غرفة الانتظار مع السكرتيرة .. جعلتنى أوقع على تعهد بأشياء ضمنها ألا أكشف أسرار التجارة ، وأنا لا أنتوى هذا على كل حال .

بدأت أشعر بالتوتر ، فأنتم تعرفون أننى لا أرتاح كثيرًا لهذه الطقوس ، كما أن الجو العام كان يوحى بالتطير . كأنما كنت فى صدد عمل تآمرى ما ، ومن حسن حظى أننى خرجت منه .

جلست فى الخارج مع المرأتين بينما الشباب يأتون ويرحلون .. فكانتا تلقيان عليهم وعلىَّ نفس النظرة من الحكمة غير المبالية .. كأنما تعرفان كل شىء عنى وعنهم .. وبعد هذا حتى وأنا بعيد جدًا عنهما فى الظلام ، لم أكف عن التفكير فى منظرهما وهما جالستان تحرسان باب الظلام ، تغزلان الصوف الأسود .. وتتفحصان القادمين المبتهجين بعينين عجوزتين لا مباليتين .. رباه ! إن أكثر من نصف من نظرتا إليهم لم يعودوا قط ..

هناك كذلك زيـارة للطبيـب .. « إجـراء روتينـى بسيط » .. كـذا أخبرتنى السكرتيرة كأنما تشاركنى آلامى ، ثم جاء شاب يخفض قبعته فوق حاجب عينه الأيسر .. موظف على مـا أظن ، لأن هنـاك موظفيـن بالتأكيد برغم أن المنزل كان صموتاً كمنزل فـى مدينـة الموتـى . جاء واقتادنى . كان مشوش الثياب وثمـة بقع حبر على كمى سترته ونعله تنكرك بطرف حذاء قديم ..

تحسس الطبيب المسن نبضى وهو يفكر فى شـىء آخر كما هو واضح وغمغم :

ـ « جميل .. جميل بالنسبة لهناك .. »

ثم بلهجة ملحة سألنى عما إذا كنت أسمح لـه بقيـاس رأسى .. وافقت فـى دهشـة ، فـأخرج مقـاييس وراح يقيس محيط رأسى من الأمام والخلف .. وقال :

ـ « من أجل العلم أقيس دومًا جماجم هؤلاء الذاهبين هنـاك .. »

ـ « والعائدون كذلك ؟ »

- « لا أراهم ثانية أبدًا .. ثم إن التغيرات تحدث بالداخل كما تعلم .. إذن أنت ذاهب هناك ؟ هذا مثير .. »

وابتسم كأنما قال نكتة لا بأس بها . وتفحصنى ثم عاد يسألنى :

- « هل هناك حالات جنون فى أسرتك ؟ »

سألته فى ضيق :

- « هل هذا السؤال من أجل العلم كذلك ؟ »

- « سيكون كذلك .. إن لدى نظرية أتمنى منكم أيها السادة الذاهبون إلى هناك أن تساعدونى على إثباتها .. هذا هو دورى فى المنفعة التى سيجنيها وطنى .. الثروة الوحيدة التى أتركها للآخرين .. وأنت أول إنجليزى أفحصه .. »

قلت له إننى لست بالإنجليزى التقليدى ، ولو كنت كذلك ما تحدثت معه ..

- « ليكن .. ابتعد عن التوتر كما تبتعد عن الشمس .. فى المناطق الحارة يجب على المرء أن يتجنب الانفعال ..

أديوه .. آه .. كيف تقولونها بالإنجليزية ؟ آه .. إلى اللقاء .. أديوه .. »

كان قد بقى شيء واحد أفعله .. هو أن أودع عمتى .. وجدتها شاعرة بالنصر ، وشربت معها قدحًا من الشاى .. آخر قدح محترم من الشاى أشربه لمدة أيام طويلة .. وجلسنا جلسة طويلة حكت لى فيها كيف أنها أخبرت زوجة ذلك المسئول أننى مخلوق خارق استثنائى ، وقطعة من الحظ الحسن للشركة .. رباه ! وعرفت أننى سأكون مسئولاً عن قارب بخارى ، وبالإضافة لهذا سألعب دورًا شبيهًا بدور المبشرين .. أنت تعرف هذا .. إن هناك الكثير من هذا السخف فى الصحف ، والمرأة الطيبة لا تملك إلا أن تفقد صوابها لدى سماع هذا .. لقد راحت تكلمنى عن « فطام الملايين من أسلوب الحياة المتوحش الذى يعيشون به » .. وأقسم إننى حاولت التلميح لها أن غرض الشركة هو الربح لا أكثر ..

غريب أن ترى كم أن النساء لا يملكن أى إحساس

بالحقائق .. إنهن يعشن فى عوالمهن الخاصة .. عوالم لم توجد قط ولن توجد ، لكنها جميلة جدًا .. وهى حقيقة قبلناها معشر الرجال ورضينا بها منذ فجر الخليقة ..

بعد هذا عانقتنى وأوصتنى أن أرتدى فانلة تحت ثيابى ، وأكتب لها دومًا ، ورحلت ..

فى الشارع - ولا أعرف سبب هذا - داهمنى شعور غريب بأننى دجال .. من الغريب أننى كنت قد اعتدت أن أرحل إلى أى مكان فى العالم خلال أربع وعشرين ساعة .. دون أن أعير ذلك اهتمامًا أكثر مما يعيره إنسان يرغب فى عبور الشارع . وبرغم هذا انتابنى بعض التوتر قبل هذا الأمر المعتاد بالنسبة لى .. خير ما أوضح به كلامى أننى شعرت لثانية أو اثنتين بأننى لست ذاهبًا إلى قلب قارة بل إلى قلب الأرض .

رحلت فى سفينة فرنسية لم تكف عن التوقف فى كل مرفأ تقابله لتنزل الجنود .. كنت أرمق الساحل .. إن مشاهدة أى ساحل ينزلق جوار السفينة هو أقرب إلى التأمل فى لغز .. ها هو ذا أمامك .. يبتسم أو يقطب ..

يدعوك .. عظيمًا .. حقيرًا .. منفرًا .. لكن هذا الساحل كان بلا ملامح .. كأنه ما زال فى مرحلة الخلق . ترى حافة دغل عملاق أخضر داكن حتى يقرب من السواد .. تحيط به أهداب موج أبيض ومن بعيد بحر أزرق اختفى ألقه تحت ضباب كثيف .. الشمس كانت شرسة والأرض توشك أن تسيل بالبخار . مستعمرات هنالك من قرون ، لكنها ما زالت أقرب إلى رءوس دبابيس وسط الطبيعة التى تحيط بها . وفى كل لحظة تشعر بأن الساحل هو ذاته ، وكأننا لم نتحرك ، لكننا مررنا بأماكن لها أسماء مثل (جران باسام) .. (بوبو الصغير) .. كأنما هى أسماء تنتمى إلى كوميديا فارس سخيفة .

كنت وحيدًا وسط هؤلاء الذين لا أجد ما يربطنى بهم .. والبحر الزيتى فاتر الهمة .. وكآبة الساحل .. كل هذا أبقانى بعيدًا عن طبائع الأشياء .. ولكن صوت الموج كان له تأثير إيجابى علىّ كأنه كلام أخ لى .. ومن حين لآخر كان قارب يأتى من الشاطئ ليعيدنى

إلى الحقيقة لحظيًا .. يقوده زنوج .. يمكنك أن ترى من على بعد بياض عيونهم . وهم يغنون ويصيحون وأجسادهم مغطاة بالعرق . وجوههم كأقنعة غريبة .. لكن كانت فيهم حيوية طبيعية وصادقة مثلها مثل أمواج البحر على ساحلهم .. وكنت أشعر براحة عظمى لرؤيتهم .. وللحظات كنت أشعر بأننى أنتمى لعالم من الحقائق المباشرة ..

أذكر ذات مرة دنونا فيها من سفينة حربية عالقة عند الساحل . يبدو أن الفرنسيين خاضوا إحدى حروبهم هناك .. وكانت مدافعها تتدلى من جوانب جسم السفينة ، بينما الموج الكسول يرفعها وينزلها .. هناك فى خواء الأرض والبحر والسماء كانت هى .. تطلق مدافعها نحو قارة كاملة لكن شيئًا لايحدث .. لاشىء يمكن أن يحدث .. ثمة نوع من الكآبة المضحكة السخيفة فى المشهد .. وجاءنى من يخبرنى أن هناك معسكرًا للسكان المحليين فى مكان ما هنا .. كان يسميهم (الأعداء) ..

زرنا أماكن أخرى لها أسماء سخيفة ، حيث تمضى

رقصة الموت والتجارة فى مناخ أرضى ساكن .. كل هذا على الساحل عديم الشكل الذى تحيط به الأمواج ، وكأن الطبيعة ذاتها أرادت أن تطرد المقتحمين . لم ندن قط إلى حد أن نحظى بانطباع ما ، لكن ذلك الإحساس بالعجب الغامض كان ينمو داخلى .. كأنه حج مرهق بين الكوابيس .

مر نحو ثلاثين يومًا قبل أن أرى ثغر النهر الكبير .. ورسونا فى مرفأ حكومى ، لكن عملى لن يبدأ قبل أن نتوغل مائتى ميل بالداخل .

بدأت رحلتى على قارب بخارى صغير ، قائده سويدى ، وقد عرف أننى بحار فدعانى معه إلى ظهر القارب .. رجل نكد المزاج شاحب نحيل يعرج قليلاً .. وإذ تركنا المرفأ البائس ، نظر باستهانة إلى الشاطئ ، وقال :

- « هل عشت هنا ؟ »

فقلت :

- « نعم .. »

ـ «شباب لطيفو المعشر موظفو الحكومة هؤلاء .. أليس كذلك ؟»

ثم استطرد فى إنجليزية جيدة لكن بلهجة مريرة :

ـ «من الغريب أن تفكر فيما يفعله بعض الناس من أجل الفرانكات .. منذ أيام اصطحبت رجلاً إلى هنا .. فشنق نفسه .. كان سويديًا هو الآخر ..»

صحت :

ـ «شنق نفسه ؟ لماذا بحق السماء ؟»

راح يراقب مسارنا بعين واحدة حذرة وقال :

ـ «من يدرى ؟ ربما كانت الشمس أكثر من تحمله .. وربما البلد نفسه ..»

فى النهاية ظهر لنا منحدر صخرى شاهق وبيوت على التل .. كان هناك عدد هائل من السود العراة يعملون بلا توقف وثمة رصيف ميناء يبرز فى البحر، وكانت الشمس تغرق كل هذا بضوء يعمى الأبصار .

قال لى القبطان السويدى :

- « هناك محطة شركتك .! »

وأشار إلى ثلاثة مبان خشبية لها سمت الثكنات العسكرية ..

- « سأرسل حاجياتك .. أربعة صناديق .. أليس كذلك ؟ وداعًا .. »

وجدت ممرًا يقود إلى أعلى التل ، وعلى جانبه كانت عربة سكة حديد صغيرة مقلوبة وعجلاتها فى الهواء .. كأنها جثة حيوان ما .. ومررت بمزيد من الآلات المتحللة المتعفنة .. دوى صوت نفير إلى يمينى فركض الزنوج .. ثم تصاعد بعض البخار من المنحدر ، وكان هذا كل شىء .. كانوا يبنون خطًا حديديًا جديدًا ..

أطرافهم كأنما هى عقد فى حبل ، وثمة ياقة حديدية حول عنق كل منهم .. وكلهم مربوط إلى سلسلة طويلة . هؤلاء الرجال لا يمكن أن تدعوهم

أعداء ، وإنما هم مجرمون .. وقد وصل القانون الغاضب إليهم كأنه قنبلة منفجرة .. كل صدورهم تلهث معًا ، وطاقات أنوفهم ترتجف .. مروا بى على بعد ستة أقدام دون أن ينظروا لى ، بتلك اللامبالاة الكاملة للمتوحشين التعساء .. ومن وراء هذا اللحم يمشى واحد من الذين تم إصلاحهم ، يحمل بندقية ويلبس سترة عسكرية تنقص أحد أزرارها ، فلما رأى رجلاً أبيض عن بعد ، رفع البندقية إلى كتفه متظاهرًا باليقظة .. كان هذا على سبيل الحذر ، لأن كل الرجال البيض يتشابهون عن بعد ..

بدلاً من أن أصعد لأعلى نزلت نحو اليسار .. كنت أريد أن تبتعد مجموعة المصفدين هذه عن بصرى قبل أن أتسلق .. أنتم تعرفون أننى لست رقيقًا .. لقد اضطررت إلى أن أضرب وأقاتل وأهاجم أحيانًا ، دون أن أحسب العواقب .. لقد رأيت شيطان العنف وشيطان الشهوة وشيطان الطمع ، لكنها كانت شياطين قوية حمراء العيون ، لكنى إذ وقفت هنالك شعرت بأننى

أواجه شيطان القسوة الرخو ضعيف الشخصية .. كم هو قوى فى غوايته كذلك .. وكنت سأكتشف هذا بعد شهور عديدة وعلى بعد آلاف الأميال .. وكان على أن أنتظر حتى يمر هؤلاء ..

كدت أتعثر فى وهدة لا تتجاوز ندبة فى التل .. واكتشفت أن أكثر أنابيب الصرف المستوردة للمستعمرة قد تم تكديسها هناك ، وكلها محطمة . وهنا وقعت عيناى على إحدى حفر الجحيم .. كانت هناك أشكال سوداء ترقد فيها .. تجلس .. تستند إلى جذوع الأشجار .. فى كل أوضاع الألم الممكنة .. كل أوضاع العزلة والقنوط .

وانفجر لغم آخر من بعيد تبعه اهتزاز التربة تحت قدمى .. كان العمل يمضى .. العمل ! وهذا هو المكان الذى كان يأتى إليه المصابون كى يموتوا ..

كانوا يموتون ببطء .. هذا كان واضحًا تمامًا .. لم يكونوا أعداء ولا مجرمين .. لم يكونوا شيئًا يمت للأرض الآن ، بل مجرد ظلال سوداء للجوع والسقم ،

يرقدون ذاهلين فى الظلام الأخضر .. جاءوا بهم من كل أرجاء الساحل ، ليطعموهم طعامًا لم يألفوه ، فمرضوا ولم يعودوا ذوى نفع .. لذا سمحوا لهم بحرية الزحف والموت هنا ..

نظرت إلى الفتى الراقد أمامى .. كانت عيناه متسعتين خاليتين أقرب إلى العمى .. وكانت سنه أقرب إلى الصبا .. لم أجد ما أقدمه له إلا واحدةً من البسكويت السويدى الممتاز الذى وجدته فى جيبى .. انغلقت الأنامل على قطعة البسكويت دون أى تعبير فى العينين . ومن حوله كان إخوته فى الألم يتناثرون متخذين كل وضع ممكن يعبر عن الألم كأنها لوحة قديمة تصور المذابح . وإذ وقفت أنظر فى رعب ، نهض أحد هذه المخلوقات علىٍ أربع وزحف نحو النهر كى يشرب .. ثم جلس قليلاً وترك ذقنه تهوى فوق صدره .

لم أرد البقاء أكثر ، فهرعت نحو المحطة ..

قابلت هناك رجلاً أبيض أنيقًا إلى حد أننى للحظة

حسبته رؤيا ، لأننى لم أتوقع كل هذه الأناقة فى مكان كهذا .. ياقة عالية منشاة وسروال بلون الثلج وكمان أبيضان وربطة عنق نظيفة .. لا قبعة .. شعر مصفف بعناية بالزيت .

صافحت هذه المعجزة وعرفت أنه كبير محاسبى الشركة ، وأنه خرج لاستنشاق بعض الهواء النقى .. ما كنت لأذكر شيئًا عن هذا الرجل لولا أننى احترمته .. نعم .. احترمت حذاءه اللامع وياقته المنشاة البيضاء .. كان مظهره كأنه دمية لدى كوافير ..

فيما عدا هذا كان كل شىء فى المحطة فى فوضى .. الزنوج يأتون ويرحلون .. نهر من البضائع والأقطان والخرز تدخل قلب الظلام ، ويخرج منه كنز ثمين من العاج .

اضطررت لأن أنتظر فى المحطة عشرة أيام .. وهى دهر ..

كنت أحيانًا أذهب إلى مكتب المحاسب ، وهو مبنى

من ألواح خشبية تم تثبيتها بشكل سيئ إلى حد أنك ترى على جسد الرجل شرائط من ضوء الشمس من رأسه حتى كعبيه . بالإضافة لهذا كان الطقس حارًا والذباب العملاق يئز فى وحشية ، ولا يلدغ بل يطعن .

ذات يوم قال لى دون أن يرفع رأسه :

ـ «فى داخل الساحل ، ستقابل مستر (كورتز) من دون شك .. »

سألته عمن يكون (كورتز) هذا ، فقال لى إنه عميل من الدرجة الأولى .. وإذ رأى خيبة أملى من تفاهة المعلومة ، قال وهو يضع قلمه :

ـ « هو شخص مرموق جدًا .. »

وبمزيد من الأسئلة عرفت أن مستر (كورتز) مسئول عن مركز تجارة .. مركز مهم جدًا .. فى بلد العاج الحقيقى .. يرسل لنا من العاج أكثر مما يرسله الآخرون مجتمعين ..

وعاد يكتب وعاد الذباب يئز ..

فجأة سمعنا لغطًا من الأصوات .. لقد وصلت قافلة بالخارج فقال :

- «حين يكون عليك أن تجرى حسابات صحيحة ، فإنك تجد نفسك كارهًا لهؤلاء المتوحشين .. »

وفكر قليلاً ثم قال وهو يرمقنى بعينين جاحظتين :

- «حين تقابل مستر (كورتز) ، قل له على لسانى إن كل شىء مرض تمامًا .. لا أحب أن أكتب له لأنه مع مبعوثينا يصعب أن تعرف فى أية يد سيقع الخطاب .. إن (كورتز) سيصل إلى بعيد جدًا جدًا .. سيصير مهمًا فى الإدارة يومًا ما .. إن من هم فى القمة فى أوروبا - كما تعلم - يريدونه كذلك .. »

في اليوم التالى تركت المحطة فى قافلة من ستين رجلا .. لأبدأ رحلة مائتى ميل ..

لاجدوى من أن أحكى التفاصيل .. ممرات وممرات .. ووحدة .. ووحدة .. لا أكواخ .. لقد رحل الناس منذ زمن بعيد .. نمشى بين عشرات القرى الخالية ..

يومًا بعد يوم أسمع صوت الستين زوجًا من الأقدام الحافية خلفى ، يحمل كل منها حملا ثقيلا .. نعسكر .. نطهو .. ننام .. من حين لآخر ترى زنجيًا فى الأصفاد ميتًا وسط الأعشاب وجواره إناء ماء فارغ ..

ذات مرة قابلنا رجلاً أبيض يلبس سترة عسكرية غير مزررة ، يحرسه مجموعة من الزنزباريين النحيلين .. كان ودودًا جدًا ولا داعى لأن أقول ثملاً كذلك .. كان يبحث عن موقع صيانة الطرق ، وأنا لم أر طريقًا ولا صيانة .. ما لم يكن الزنجى الذى تعثرت فى جثته على بعد ميلين ، وثقب رصاصة فى جبهته ، يمثل اتجاهًا دائمًا نحو التقدم .

كان معى مرافق أبيض أيضًا ، وهو ليس سيئًا إلا أنه بدين ولديه عادة مثيرة للحنق هى أنه يفقد وعيه فى الحر ، حيث لا يوجد ظل ولا ماء .. من الأشياء التى تضايق أن ترفع معطفك كالمظلة فوق رأس رجل لتحميه من الشمس .. وقد سألته مرة عما يقصده من المجىء هنا .. فقال بازدراء :

- « المال طبعًا .. ماذا تحسب ؟ »

فلما أصابته الحمى اضطررنا إلى حمله فى أرجوحة .. ولما كان يزن ستين حجرًا فقد كان علىَّ أن أخوض معارك مع الحمالين .. كانوا على وشك التمرد .. وقد ألقيت عليهم خطبة بالإنجليزية مع إشارات بيدى فهمها الجميع ..

وفى اليوم التالى وجدت كل شىء ملقى وسط الأشجار : الرجل .. الأرجوحة .. كان صاحبى ثائرًا ويريد منى أن أقتل شخصًا ما ، لكننى لم أجد حمالاً واحدًا أمامى .. وتذكرت ما قاله الطبيب عن أن البلد يغير عقول الناس .. لقد بدأت أتحول إلى ظاهرة مثيرة للاهتمام علميًا ..

فى اليوم الخامس عشر رأيت النهر من جديد .. ورأيت محطة الشركة التى تحيط بها الأشجار الكثيفة من كل صوب إلا من جهة واحدة صارت هى البوابة .. وقال لى شاب ضخم ما إن عرف من أنا ، بكثير من الاستطراد ، إن قاربى البخارى هو فى قاع النهر الآن ..

شعرت كمن ضربه البرق .. ماذا ؟ كيف ؟ لماذا ؟

لكن كل شىء على ما يرام .. لقد تصرف الكل جيدًا ، والمدير نفسه كان هناك .. يجب أن تذهب لتقابل المدير العام شخصيًا فهو فى الانتظار !

لم أفهم معنى هذا وقتها .. أعتقد أننى أفهم الآن ولكنى لست متأكدًا .. حين أفكر فى الأمر أجده غبيًا .. لقد غرق القارب .. لقد انطلقوا متعجلين إلى النهر منذ يومين والمدير معهم .. وتحت قيادة ربان متطوع ، لكنهم مزقوا قاع القارب على الصخور .. وغرق قرب الضفة الجنوبية . سألت نفسى عما أفعله هنا ما دام قاربى قد غرق .. والحقيقة أننى احتجت إلى وقت كبير حتى أستخرج قاربى من الماء ، واستغرقت عملية الإصلاح عدة أشهر .

كان لقائى الأول بالمدير غريبًا .. لم يطلب منى الجلوس بعد العشرين ميلاً التى مشيتها .. كان شخصًا عاديًا فى كلامه وشكله وطباعه .. لكن كان هناك شىء مختلس ما .. ربما ابتسامة .. لا ليست

ابتسامة .. كانت تتبع كلماته للحظة خاطفة كأنها ختم يعطى لأبسط الكلمات مغزى غامضًا. كان مطاعًا لكنه لا يوحى بالحب ولا بالكره .. كان يوحى بعدم الارتياح ! هكذا ! عدم الارتياح .. لاشىء سوى هذا .. لم يكن ذا تعليم مرموق ولا ذكاء .. لقد ظفر بمنصبه ربما لأنه لم يمرض قط .. والصحة هنا نوع من القوة . وكان يقول للمرضى الذين يملئون المحطة حوله : الرجال الذين يأتون هنا ، يجب ألا تكون لهم أحشاء !

بدأ يتكلم ما إن رآنى ، ولم يطق الانتظار .. إن محطات النهر يجب أن تشفى من الاختناق .. هناك رحلات تأخرت ولا أحد يعرف من مات ومن بقى حيًا .. لم يبال بتفسيراتى ، وراح يعبث بعصا من الشمع ويردد : « الموقف خطير .. خطير .. »

هناك إشاعات أن إحدى المحطات فى خطر ، ورئيسها مستر (كورتز) مريض .. آمل ألا يكون هذا حقيقيًا .. كنت متعبًا وقلت لنفسى : فليشنق (كورتز) هذا .. لذا قاطعته قائلاً إننى سمعت عن (كورتز) فقال :

- « آه ! إذن هم يتكلمون عن (كورتز) هناك .. »

وأكد لى أن (كورتز) رجل غير عادى .. رجل استثنائى شديد الأهمية للشركة .. وغادرت الكوخ وأنا ألعنه فى سرى ..

فى الأيام التالية حاولت ألا أنظر إلى المحطة كى أنسى ما يتعلق بها ، وإن شعرت بأن هذه كلها مسرحية عبثية .. لفظة (عاج) تتردد فى الهواء .. تهمس .. توقع .. ربما تعتقد أنهم يقولونها فى صلاتهم .. بالله عليك أنا لم أر ما هو أكثر زيفًا فى العالم كله .. إن لفظة (عاج) تتردد كأنها مطلق مثل (الصدق) و (الكذب) .. وكل هؤلاء الرجال يتظاهرون بأنهم حقيقيون صادقون ، لكن لا أحد يعبأ بشىء .. ثمة مناخ عام من التظاهر والادعاء هنا ، ولا شىء يهمهم حقًا إلا النسب المئوية التى سيحصلون عليها من تجارة العاج .

سألت أحد الرجال :

- « من هو المستر (كورتز) ؟ »

قال بنبرة حاسمة :

- « هو رئيس المحطة الداخلية .. »

قلت له ضاحكًا :

- «أنا ممتن لك على هذا ..»

صمت قليلاً ثم قال :

- «إنه معجزة .. إنه رسول العطف والعلم والتقدم ..»
- وتحول كلامه إلى لهجة خطابية - «كنا مكلفين من أوروبا بمهمة ، وكنا بحاجة إلى ذكاء شامخ وهدف موحد وتعاطف لا حد له .. ثم يجيء إلينا ذلك الرجل .. كيان متفرد كما ستعرف حتمًا ..»

- «ولماذا سأعرف حتمًا ؟»

سألته فى دهشة لكنه لم يولنى اهتمامًا ..

- «اليوم هو رئيس أفضل محطة .. غدًا يكون مساعد المدير .. بعد عامين .. لكنى أعرف أنك تتوقع ما سيكونه بعد عامين .. أنت من نفس الطراز .. القوم الذين أرسلوك هم الذين أهدوه إلينا ..»

هنا بدأت أفهم .. إن نفوذ عمتى العزيزة وعلاقاتها ،

أحدثت تأثيرًا عجيبًا هنا . نظرت للرجل وشعرت أن بوسعى أن أغرس سبابتى فى لحمه ، وأنا أقسم إننى ما كنت لأجد شيئًا داخله إلا القذارة .. واضح أنه كان يتمنى أن يكون مساعد المدير وهو قلق جدًا بصدد قدوم (كورتز) ..

كان يثرثر ويثرثر وأنا أصغى وقد أرحت كتفى إلى بقايا القارب المهشم ، الراقد كأنه جثة حيوان نهرى ميت .. ورحت أنظر إلى الظلام المحيط بالغابة من بعيد ..

من نحن ؟ وماذا أتى بنا هنا ؟ هل نستطيع التعامل مع هذا الشىء العملاق الصموت وربما الأخرس ؟ أعرف أن فيه عاجًا وفيه (كورتز) كذلك .. لكم سمعت عنه لكن هذا لم يزدنى علمًا .. لقد آمنت به فقط بنفس الدرجة التى تصدق بها أن هناك كائنات حية على كوكب المريخ ..

أنتم تعرفون كم أكره الكذب .. ليس لأننى طاهر الذيل ، ولكن لأن للكذب طعمًا عفنًا كريهًا يذكرنى

بوهننا وضعفنا .. يذكرنى بموتانا .. وقد كذبت كثيرًا على ذلك الرجل كى أقنعه بنفوذى القوى فى أوروبا .. وبالقوى المخيفة التى ورائى، بينما لم يكن ورائى شىء إلا القارب العجوز الذى نقوم بإصلاحه ..

لم تكن علاقتى بـ (كورتز) أكثر من علاقتكم أنتم به، وأنا أحكى لكم عنه .. هل ترونه ؟ هل ترون القصة ؟ هل ترون أى شىء ؟ كأننى أحكى لكم حلمًا .. وهى محاولة فاشلة لأنك مهما حكيت الحلم لن تستطيع أن تنقل الإحساس به .. أن تنقل الإحسان باللامعقولية التى هى روح الحلم ..

كان العمل متوقفًا فى القارب البخارى بسبب مسامير البرشام .. لقد كان هناك الكثير منها على الساحل، وكنت تدوس فى كل لحظة على عشرات منها على الرمال، لكن ما من مسمار منها كان موجودًا حيث تمس الحاجة إليه هنا .. كنا نرسل الزنوج إلى المرفأ نسألهم أن يرسلوا لنا مسامير،

وكانوا يعودون حاملين كل شيء إلا ما نريد .. برغم أن ثلاثة رجال يقدرون على جلب كل احتياجاتنا . وقد قلت للرجل إن العمل متوقف بسبب مسامير البرشام ، ولسوف يتضايق مستر (كورتز) كثيرًا لو لم يجلبوا لى ما أريد .. فقط لو عرف بالأمر ..

كنت أحب القارب البخارى بشدة .. وقد بذلت فى إصلاحه جهدًا كبيرًا جعلنى أتعلق به .. لقد منحنى ساعات من السلوى والنسيان ومعرفة ما يجب أن أفعله .. أنا لا أحب العمل .. وأفضل أن أسترخى فى كسل وأفكر فى الأشياء الجميلة التى يجب أن تعمل .. لا يوجد رجل يحب العمل ، لكننا نحب ما يمنحنا إياه العمل من اكتشاف لذواتنا .. لحقيقتنا ..

لكنى كنت قد بدأت أكف عن القلق بصدد مسامير البرشام تلك .. إن قدرة المرء على تحمل الحماقات أقل بكثير مما تتوقعه أنت .. قلت لنفسى : سحقًا ! وهكذا وجدت لدى الكثير من الوقت كافيًا للتأمل ..

ومن حين لآخر أتذكر (كورتز) .. لم أكن مهتمًا به .. لكنى فضولىّ كى أرى كيف سيصعد هذا الرجل - المسلح بالأخلاق والمثل العليا - إلى القمة ، وكيف سيدير العمل حين يصل إليها .

★ ★ ★

2

ذات ليلة كنت نائمًا على ظهر القارب ، حين سمعت رجلين يتكلمان على ضفة النهر .. أرحت رأسى على ذراعى ثانية وكدت أغرق فى النعاس ، حين سمعت من يقول فى أذنى :

ـ « أنا لا أستطيع الإيذاء كالأطفال ، لكننى أكره أن يملى على أحد شيئًا .. هل أنا المدير أم لا ؟ لقد أمرت بإرساله إلى هناك ، وهذا لا يصدق .. »

وفهمت أن الرجلين يقفان عند مقدمة القارب .. ولم أتحرك .. لم يخطر لى أن أتحرك لأننى كنت شبه نائم .. وسمعت باقى الكلام :

ـ « هذا لا يدعو للسرور .. لقد طلب هو من الإدارة أن يرسل هناك .. وفكرته أن يريهم ما يستطيع أن يفعله .. تأمل مدى نفوذ هذا الرجل .. أليس هذا مرعبًا ؟ »

- « الجو قد يساعدك على التخلص منه .. هل هو وحيد هناك ؟ »

- «نعم .. لقد أرسل (كورتز) مساعده إلىّ برسالة تقول : أبعد ذلك الأحمق عن البلاد ولا تضايقنى .. أفضل الوحدة عن استقبال هذا النوع من الرجال .. كان هذا منذ عام .. هل تتخيل مدى الوقاحة ؟ »

- « وهل جد جديد بعد هذا ؟ »

- « عاج .. الكثير منه .. من أفضل الأنواع .. كميات هائلة .. »

كانا يتكلمان عن (كورتز) ..

كنت الآن قد أفقت تمامًا ، لكننى حافظت على رقدتى لأسمع ..

- « وكيف وصل العاج عبر كل هذه المسافة ؟ »

- « وصل على قوارب صغيرة .. كان يقودها نصف هندى نصف إنجليزى يعمل لديه ، ثم عاد

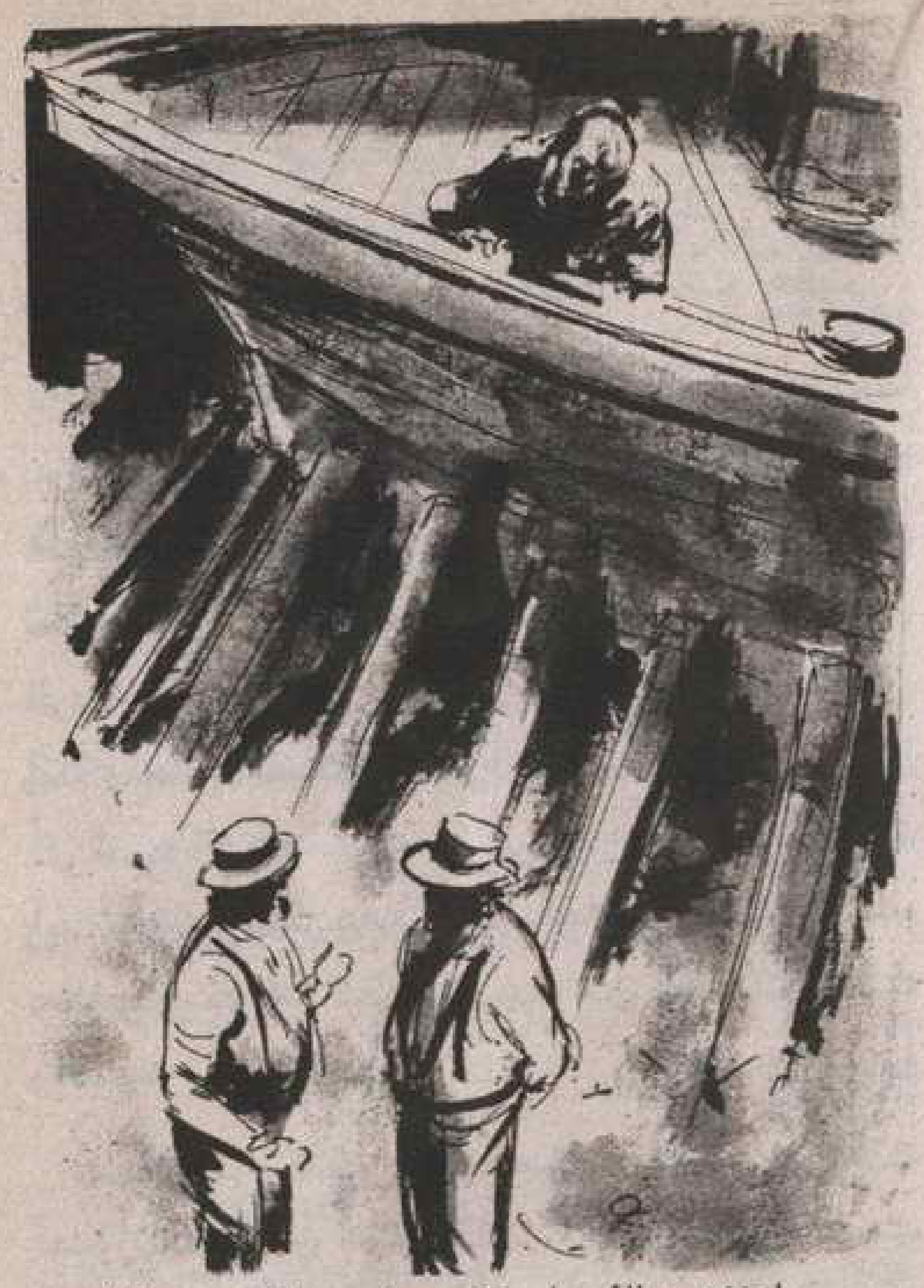
(كورتز) إلى الداخل بقارب صغير بدواليب .. كانت هذه أول مرة أرى فيها (كورتز) بقاربه ذى الدواليب التى يحركها الزنوج .. وقد يمم وجهه شطر الأدغال .. نحو محطته المهجورة الخالية .. أنت تعرف أنهم لايشيرون إليه باسمه أبدًا ، بل يقولون (ذلك الرجل) ، أما مرافقه نصف الإنجليزى فيطلقون عليه (ذلك الوغد) .. وقد أخبرنا ذلك الوغد أن (الرجل) كان مريضًا جدًّا لكنه شفى إلى حد ما .. »

قال الآخر فى ضيق :

ـ « سحقًا للمنافسة ! لابد من طريقة لمنع هذه المنافسات .. لو أن أحدهم شنق مرة .. أنت تعرف أن كل شىء ممكن فى هذا البلد .. »

ـ « إن الرجل لايريحنى ، وقد أتعبنى حين كان هنا » :

وانخفضت الأصوات فرفعت رأسى ، لأجد مندهشًا أنهما تحتى بالضبط .. يمكننى أن أبصق على قبعتيهما لو أردت .. وأطلق الرجلان السباب وابتعدا وقد ارتسم ظلهما خلفهما .. طويلاً كئيبًا ..



وانخفضت الأصوات فرفعت رأسي ، لأجد مندهشًا
أنهما تحتي بالضبط ..

بعد شهرين بدأت رحلتى عبر النهر ..

إن السفر عبر النهر يشبه العودة القهقرى إلى بدايات العالم ، حين طغت النباتات على الأرض ، وكانت الأشجار ملوكًا .. نهر خاو .. صمت عظيم .. غابة لا يمكن اختراقها .. الهواء دافئ ثقيل ..

لا شىء يسر فى ضياء الشمس .. وعلى الضفاف الفضية تغفو التماسيح وأفراس النهر .. والمياه تسرى بين حشود من الجزر الخشبية .. تضل طريقك فى هذا النهر كأنك فى الصحراء .. تبحث عن قناة وتحسب نفسك مسحورًا ، وأنك معزول للأبد عن أى شىء تعرفه .. بعيدًا .. فى مكان ما .. فى وجود آخر ربما .. تسترجع ذكريات الماضى فى شكل حلم صاخب وسط هذا العالم الغريب من النباتات والماء والصمت ..

هدوء الماء هذا لا يشبه السلام فى شىء .. وكنت أحاول جاهدًا أن أدرس النهر وأعرف أين توجد الصخور .. وأطبق على شفتى السفلى وقلبى يسقط

فى قدمى ، حين أوشك على أن ألامس صخرة تنذر بتمزيق قاع القارب .. إن الحقيقة - أقول لكم - تتلاشى .. تخيل رجلاً مربوط العينين يمشى للمرة الأولى فى طريق وعر .. لا أزعم أننا لم نعلق بقاربنا فوق الصخور .. عندها كنت أستعين بطاقمى من أكلة لحوم البشر .. أناس طيبون أكلة لحوم البشر هؤلاء .. كانوا رجالاً يمكنك أن تعمل معهم .. وعلى الأقل لم يأكل بعضهم البعض أمام عينى .. كانوا قد جلبوا معهم بعض لحم أفراس النهر ، الذى تعفن .. وجعل لغز الأحراش له رائحة كريهة بالنسبة لى .. أف ! يمكننى أن أشمه الآن .. كان المدير معى على ظهر القارب ..

تنفتح الأحراش أمامك وتنغلق من خلفك كأنها تحاول أن تسد عليك طريق العودة .. وتوغلنا أكثر فأكثر فى قلب الظلام ..

كان الهدوء تامًا هناك .. أحيانًا فى الليل يدوى قرع الطبول خلف الأشجار ، كأنما يحوم فى الهواء فوق

رءوسنا حتى الفجر .. لا نعرف إن كان معناه الحرب أم السلام أم الصلاة ..

كنا نمضى فى أرض تمت لما قبل التاريخ .. على أرض تنكرت فى ثياب كوكب مجهول . كأننا أول ورثة لإرث ملعون .. ننزلق كالأشباح خائفين ، كأننا العقلاء فى مستشفى مجانين تجتاحه ثورة مجنونة ..

كانت الأرض لا تمت لكوكب الأرض بصلة .. والرجال .: لا .. ما كانوا بشريين .. أنت تعرف أن هذا أسوأ ما فى الأمر .. كنت تراهم من بين الأحراش من حين لآخر ، فيخيفك الشك فى حقيقة آدميتهم ، وفى كونك ربما تمت لهم بصلة قربى ولو واهية .. أنت تفهم ضوضاءهم لأن فيها كل شىء ..

الحقيقة .. الحقيقة التى تجردت من دثار الزمن .. لكن لا وقت عندى لهذه التأملات ، لأننى أراقب الغلايات والمواسير .. وأراقب المتوحش الذى صار وقادًا .. إنه يعمل قربى هنا ، ومشاهدته لا تقل غرابة عن مشاهدة كلب يمشى على قدميه الخلفيتين ويعتمر

قبعة .. كان قد برد أسنانه لتبدو حادة وثمة ثلاث ندوب على كل خد .. كان من المفترض أن يكون الآن على الشط يصفق بيديه ويرقص ، لكنه كان يؤمن بحقيقة علمناها له : لو نفد الماء من هذه الغلاية لهاجت الروح الشريرة فيها بسبب الظمأ .. ولانتقمت انتقامًا مريعًا .. لهذا كان يراقب الغلاية فى رعب وقد ثبت تعويذة مرتجلة على ذراعه ، وقطعة عظم فى حجم الساعة ثبتها فى شفته السفلى ..

بعدما قطعنا خمسين ميلاً من الرحلة ، وصلنا كوخًا من القصب على الضفة .. ثمة بقايا علم لا يمكن تعرفه ترفرف من فوقه .. وكومة من الحطب .. قرب الكومة وجدنا قطعة خشب كتب عليها بالقلم الرصاص كتابة باهتة تقول :

- « هنا خشب لكم .. اقتربوا .. اقتربوا بحذر .. »

وثمة توقيع لكنه ليس توقيع (كورتز) .. الاسم أطول من هذا ..

ماذا يريد منا ، ولماذا نقترب بحذر ؟ لا يمكن فهم هذه الكلمات .. إن الأحراش كثيفة لاتسمح لنا بالتدقيق ولا الرؤية .. كانت هناك ستارة حمراء على باب الكوخ وما يدل على أن رجلاً أبيض عاش هنا من قريب .. وفى الداخل كان كتاب اهترأت صفحاته .. عن الملاحة كتبه ضابط فى أسطول صاحبة الجلالة ، والغريب أن هناك من درسه بعناية وكتب ملاحظات شفرية على الهوامش .. تصور هذا ! رجل فى قلب الغابة يعنى بأن يشفر ملاحظاته على كتاب عن الملاحة !

برغم هذا أحببت الكتاب لأننى شعرت بأنه شىء حقيقى .. دسسته فى جيبى بينما كانت كومة الحطب قد اختفت .. حملها الزنوج إلى قاربنا ، وسمعت المدير يزأر مناديًا إياى ..

بدأت المحرك ، على حين قال المدير :

ـ « لابد أن ذلك التاجر .. ذلك التعس ... »

قلت له :

- « لا بد أنه كان إنجليزيًا .. »

غمغم المدير فى كآبة :

- « ما كان هذا ليحميه لو لم يتخذ حذره .. »

مساء اليوم التالى قدرنا أننا على بعد ثمانية أميال من مكان (كورتز) .. أردت أن أسرع لكن المدير قال فى جدية : إن الملاحة هنا خطرة فعلاً ، بحيث صار من الحكمة أن نمضى الليل حيث نحن .. بالإضافة إلى أننا لو أردنا أن نتبع تعليمات الكتابة التى تنصحنا بالحذر فى أثناء اقترابنا ، فعلينا أن نقترب فى النهار لا الليل ..

كان هذا معقولاً .. إن ثمانية أميال معناها ثلاث ساعات ملاحة .. لكنى كنت متضايقًا بسبب التأخير ، وهو ضيق لا معنى له ، لأنه لا أهمية لليلة واحدة أخرى بعد عدة أشهر من التأخير ..

كان الصمت محيرًا كأن الغابة تحولت كلها إلى

حجر .. ما كان هذا نومًا بل هو شىء غير طبيعى كالغيبوبة .. تشعر بالدهشة وتشك فى أنك فقدت السمع نهائيًا ..

ثم يأتى الليل فجأة ليصيبك بالعمى كذلك ..

حين بزغت الشمس كان هناك ضباب .. ضباب كثيف ساخن يعميك أكثر من الظلام .. وفى التاسعة صباحًا ارتفع كأنه غطاء يرتفع .. ورأينا الأشجار وكرة الشمس فوقها ..

كل شىء صامت ساكن .. ومن جديد عاد الضباب يهبط فى كثافة ..

ثم دوت صرخة .. صرخة عالية فيها تعاسة لا حد لها .. ثم دوى صخب وحشى ..

كانت المفاجأة مما جعل شعر رأسى ينتصب تحت قبعتى .. لا أدرى ما حسبه الآخرون لكنى حسبت الضباب نفسه يصرخ ..

ثم ساد الصمت تاركًا إيانا فى أوضاع أقرب إلى السخف والغباء ..

وسألنى أحد المتجهين معى إلى قلب الظلام :

- «يا إلهى الرحيم ! ما معنى هذا ؟»

وهرع اثنان إلى داخل القمرة ، ثم عادا وهما يصوبان إلى الغابة نظرات رعب ، وفى يد كل منهما بندقية (ونشستر) لكننا لم نر إلا حدود القارب الذى نحن فيه ، وبعد هذا لا شىء على الإطلاق .. ونسيت العيون أن ترمش ..

وتساءل واحد :

- « هل سيهجمون ؟ »

وقال آخر :

- «سوف يذبحوننا جميعًا فى هذا الضباب .. »

ولم يبد للسود قلقًا بالغًا .. كأنما فهموا الأمر تمامًا بجمل قصيرة مقتضبة .. دنا منى أحدهم وهو شاب متين البنيان عريض الصدر ، له شعر مجعد دهنه بالزيت فى عناية ، وقال لى وقد احمرت عيناه :

- « أمسكهم .. »

- «لم ؟»

- «أمسكهم .. أعطنا إياهم ..»

- «لماذا ؟»

- «نأكلهم ..»

ومال على حاجز القارب يرمق الضباب فى تأمل ..

والحقيقة أن ما منعنى من الرعب هو أننى أعرف أن هؤلاء الشباب جائعون حقًا .. كانوا قد حملوا معهم كميات من لحم فرس النهر لكنه فسد .. وقد تخلصنا من كثير منه دفاعًا عن النفس .. فأنت لا يمكنك أن تشم لحم فرس النهر المتعفن حين تصحو وحين تنام وحين تأكل ، وتحافظ على عقلك فى الوقت ذاته ، بالإضافة لهذا كنا نعطى كلا منهم قطعة من السلك النحاسى .. حوالى تسعة أقدام كل أسبوع ، على أساس أنهم سيشترون بها احتياجاتهم من القرى المجاورة .. لكن لم تكن هناك قرى .. ولم يكن المدير راغبًا فى إيقاف القارب ..

لهذا لم يعد من حل لهؤلاء القوم إلا أن يأكلوا السلك أو يصطادوا به السمك .. فلا نفع إذن من هذا الراتب المرتفع الذى يتقاضونه .. يجب أن أقول إن هذا الراتب كان يدفع بانتظام يليق بشركة محترمة ..

لماذا بحق السماء لم ينقضوا علينا ؟ هذا يثير دهشتى الآن حين أفكر فيه .. كانوا أقوياء شجعان برغم أن جلودهم لم تعد تلمع بذات البريق .. وكانوا عاجزين عن تقييم التبعات أو المخاطر ..

كان هناك نوع من الترويض .. نوع من السر الذى لايمكن فهمه . وهذا ما كان يمنعهم من التهامنا .. نوع من القمع .. ربما هو الخوف أو الصبر أو الاشمئزاز .. لكن ما أصعب أن يقاوم المرء الجوع .. من السهل أن تقاوم الحرمان أو العار أو الاشمئزاز .. لكن ليس الجوع الممض الطويل ..

قال المدير من خلفى :

- « الأمر خطر .. سوف أحزن جداً لو حدث شىء للمستر (كورتز) قبل أن نصل إليه .. »

نظرت له ولـم أرتـب فـى أنـه صـادق .. إنـه رجـل حريص على المظاهر .. لكن حين تكلم عن مواصلـة الرحلة ، لم أجبـه .. فهو يعرف تمامًا أننا لانستطيع المضى فى هذا الضباب وإلا ضعنا تمامًا ..

بالطبع لم أتحرك .. لم أكـن رائـق المـزاج لتجربـة تهشيم القارب على الضفة .. لا يوجد مكان أسوأ مـن هذا لتحطم سفينة .. وسـواء غرقنـا أو لـم نغـرق ، فلسوف نقضى نحبنا بسهولة تامة ..

قال لى :

ـ « أنا آمرك بالمخاطرة .. »

قلت له :

ـ « وأنا أرفضها .. »

وهى الإجابة التى توقعها .. لكنها أثـارت دهشته .. قال بتحضر :

ـ « حسن .. سأقبل حكمك فأنت القبطان .. »

ونظرت إلى الضباب وحاولت أن أتصور متى يزول ، لكن هذا كان مستحيلاً .. إن الطريق إلى (كورتز) هذا محفوفًا بالمخاطر ، حتى كأنه ملك أسطورى فى قلعة مسحورة ..

سألنى :

- « هل تحسبهم سيهجمون ؟ »

لم أتوقع هذا لأسباب عدة .. الضباب الكثيف سبب منها .. لو خرجوا من الضفة على قواربهم فلسوف يعجزون عن الوصول إلى قاربنا ..

بالإضافة لهذا شعرت أن الأحراش الكثيفة غير قابلة للاختراق .. هناك عيون فيها لكنها لايمكن اختراقها .. كذلك كانت الصرخات أقرب إلى الحزن والأسى ولا توحى بالشراسة والهجوم .. شىء ما فى قاربنا ملأ المتوحشين حزنًا لسبب لا أفهمه .. إنه رد فعل أقرب إلى النفور منه إلى التهديد ..

لما انقشع الضباب وواصلنا المسير ، رأينا على بعد

ميل ونصف من مقر (كورتز) جزيرة صغيرة فى منتصف النهر .. لما اقتربنا أدركت أنها مجموعة من الجزر الصغيرة أكثرها تحت الماء ، كما ترى سلسلة ظهر الرجل تحت جلده ..

اتجهنا إلى الغرب لأننى أعرف أن المحطة توجد فى الغرب ..

ما إن مررنا حتى أدركت أن القناة أضيق مما تصورت ..

فجأة رأيت الزنجى الذى يختبر عمق النهر يتخلى عن مهمته ويرقد على السطح .. بالمثل وجدت الوقاد يترك عمله ويدفن رأسه بين يديه .. أصابتنى الدهشة ، ثم وجدت أن عصيًا كثيرة تخرج من الأحراش .. وتضرب كل شىء .. عصى .. عصى ..

رباه ! نحن نقذف بالسهام ! لكننا سنرتطم بالضفة .

هرعت إلى جانب القارب فرأيت وجهًا على نفس مستوى وجهى .. ينظر لى بوحشية وثبات .. ثم

كأنما أزيل غطاء عن عينى ، رأيت أن الدغل يعج بأجسام برونزية عارية . . وعيون براقة غاضبة ..

اهتزت الغصون ومنها خرجت آلاف الأسهم .. وأمامنا رأيت جذع شجرة فى منتصف التيار ..

ثم سمعت من تحتى من يقول :

- « هل يمكنك أن تتراجع ؟ »

ثم انطلقت القذائف من تحتى .. إن المسافرين إلى قلب الظلام قد جاءوا ببنادقهم ، وسرعان ما راحوا يقذفون بالرصاص إلى الدغل .. وتصاعد الدخان .. واندفعت الأسهم كسرب النحل ، ولربما كانت مسمومة لكن بدا لى أنها لا تقدر على إيذاء قط ..

ودوت بندقية من خلفى فأصابتنى بالصمم ..

لا توجد مسافة كافية للتراجع القهقرى حتى لو أردت هذا .. لهذا اندفعت نحو الضفة حيث الماء أكثر عمقًا ، واخترقنا مجموعة من الغصون المتشابكة ..

تدحرج عملاق ليسقط عند قدمى .. كان هذا هو مراقب الدفة .. ثمة شىء دافئ عند قدمى .. نظرت لأسفل فرأيت أن رمحًا يخترق ضلوعه ..

وقدرت أن أمامنا بضعة أمتار يمكننا بعدها أن نعود إلى وسط النهر ، بعدما نكون تجاوزنا الجذع الطافى .. كان حذائى الآن مليئًا .. بركة دم تغطى الأرض .. الرجل يتشبث بالرمح بين ضلوعه فى رعب كأنه شىء ثمين يخشى أن انتزعه منه .. كان على أن أبذل جهدًا كى أحرر عينى من نظرته وأوجه اهتمامى إلى عجلة القيادة ..

بيد واحدة بحثت عن الصفارة .. وسرعان ما انطلق الصراخ المخيف الغاضب ليدوى فى الأحراش .. كأنما ينعى اختفاء آخر أمل من على وجه الأرض ..

كانت هناك حركة فى الأحراش .. توقف شلال السهام ثم ساد الصمت ..

خرج لى أحد البيض الراحلين إلى قلب الظلام ، وقال لى :

ـ « أرسلنى المدير .. »

ثم رأى جثة الزنجى فهتف :

ـ « يا إلهى الرحيم ! »

ووقفنا فوق الجثة .. بينما المحتضر يرمقنا بنظرة متسائلة غمرتنا .. بدا كأنما سيسألنا سؤالاً بلغة مفهومة لنا ، لكنه لفظ أنفاسه بلا صوت .. دون أن يحرك عضلة .. وتلاشى بريق عينيه فى نظرة زجاجية خاوية ..

سألت الرجل الأبيض :

- « هل تستطيع تحريك عجلة القيادة ؟ »

بدا لى حائرًا فأمسكت بذراعه مكررًا سؤالى .. لأقول الحق ؛ كنت راغبًا بشدة فى استبدال جوربى وحذائى الملوثين بالدم ..

- « الزنجى مات .. »

- « لا أشك فى هذا .. وأعتقد أن مستر (كورتز) هو الآخر قد مات »

وشعرت بخيبة أمل كأنما سافرت كل هذه المسافة لا لغرض إلا لأرى مستر (كورتز) .. بل أدركت كم كنت أصبو لسماعه يتكلم ..

ألم أسمع دائمًا ـ مع الكثير من الحسد أو الغبطة أو المقت ـ أن الرجل يجمع من العاج ما يفوق ما يجمعه الآخرون جميعًا ؟

طوحت بحذائى إلى النهر .. وقلت لنفسى :

ـ « بحق السماء قد تأخرنا جدًا .. لن أرى الرجل أبدًا ولن أسمعه ، والسبب رمح وسهم وعصا .. »

ولسبب ما شعرت كأنما سلبت عقائدى ، أو فقدت آخر هدف لى فى الحياة .. تقولون إن هذا سخف ! سخف ؟ ماذا تعرفون أنتم يا سادة وأنتم تجلسون هنا بصحة طيبة وحرارتكم سليمة ؟ ماذا تعرفون عن رجل بلغ به الجنون وهذيان الحمى أن تخلص من حذائه الجديد فى النهر ؟!!

طبعًا كان مكتوبًا لى أن أسمع كلمات (كورتز) وإن لم أفهم هذا وقتها ..

فيما بعد استطعت أن أرى كتيبًا كتبه (كورتز) عن طريقة تهذيب السكان المتخلفين فى تلك الأصقاع .. كيف وجد الوقت لذلك ؟ لا أدرى ..

كانت أول فقرة قد صدمتنى .. لأنها تقول : « من وجهة نظر التقدم الذى أحرزه الرجل الأبيض ، فمن الضرورى أن يرانا المتوحشون ككائنات خارقة للطبيعة .. وأن نتعامل معهم من منطق الألوهية .... وبالتدريب البسيط يمكن أن نصل إلى قوة لفعل الخير هى - عمليًا - غير محدودة .. »

كان منطقه رائعًا برغم أنه من الصعب تذكر الكلمات كما تعرفون .. لقد جعلنى أشعر بقشعريرة من الحماسة تلك هى قوة البلاغة .. قوة الكلمات ..

وفى نهاية الكتيب ملحوظة بيد غير ثابتة ، كأنها البرق ، تقول :

- « أبيدوا كل المتوحشين ! »

وكأنما نسى تمامًا كل ما قاله عن أساليب الحيلة ..

لكنه كان شخصًا غير طبيعى .. كانت لديه القدرة على أن يخلب لب المتوحشين كى يرقصوا من أجله رقصات سحرية .. وأنا لن أستطيع أن أنساه برغم

أننى أومن أن الرجل لايستحق تلك الحياة التى فقدناها ونحن نحاول الوصول إليه ..

لقد افتقدت ذلك الزنجى المسئول عن الدفة .. افتقدته حتى وجثته مازالت ساخنة على أرض قمرة القيادة .. هذا قد يبدو لك غريبًا بالنسبة لمتوحش لاتمثل حياته أكثر من ذرة رمل فى الصحراء .. لكننى عرفته .. واعتدت أن أراه على الدفة خلفى .. عونًا .. أداة .. نوعًا من الزمالة .. كنت أعنى به ، وقد تكونت صداقة بيننا لم أدر بها إلا حين تحطمت .. ولم أزل أذكر نظرته لى كأنما هى مطالبة بقرابة بعيدة بيننا ..

فما إن وجدت خفين جديدين ، حتى انتزعت الرمح من جانبه .. وهى عملية أعترف أننى قمت بها بعينين مغلقتين . احتضنته وجذبته نحو الباب .. كان ثقيلاً .. ثقيلاً .. أثقل من أى رجل على الأرض .. ثم ألقيت به فى اليم .. والتقطه التيار بسهولة كأنه بعض العشب ، وانقلب مرتين قبل أن يحمله الماء بعيدًا ..

ووقف بعض المسافرين نحو قلب الظلام يرمقوننى فى



كان ثقيلاً .. ثقيلاً .. أثقل من أى رجل على الأرض ..
ثم ألقيت به فى اليم .. والتقطه التيار بسهولة ..

نوع من التأفف لخشونتى .. لا أدرى إن كانوا يعتقدون أنه من الإنسانية أن أتركه للأبد على ظهر القارب ..

وفى قاع القارب كان السود كذلك غير راضين عنى ، وإن كان لأسباب أخرى . لكنى كنت قد قررت أنه لو التهم أحد صديقى هذا ، فالأسماك وحدها لها الحق فى ذلك .. كان رجل دقة رديئًا فى حياته لكنه الآن وقد مات صار طعامًا من الدرجة الأولى ، ولربما سبب لنا المتاعب ..

وكان الجميع الآن يعتقدون أن المتوحشين قتلوا (كورتز) وحرقوا المحطة ..

قال لى الرجل الذى كان قد تولى القيادة والذى أخذت منه العجلة الآن :

ـ « قل لى .. لابد أننا ذبحنا الكثيرين منهم فى الأحراش .. هل ترى هذا ؟ »

وكاد يرقص من الانفعال .. هذا الحقير الظامئ للدماء .. كدت أقول له : إنك أحدثت سحابة دخان ممتازة جدًا .. هذا كل شىء .

فقد أدركت من الطريقة التى اهتزت بها الأحراش أن أكثر الطلقات كانت عاليـة جدًا .. هؤلاء الشباب كانوا يطلقون النار لأعلى من جوار أردافهم وهم يغمضون العيون .. وقررت - وكنت محقًا - أن الانسحاب كان بسبب الصفارة العالية .. لا أكثر ..

ووقف المدير يغمغم شيئًا عن ضرورة الابتعاد فى النهر قبل الظلام بأى ثمن .. عندها رأيت فسحة بين الأشجار والمعالم الخارجية لمبنى .. سألته :

- « ما هذا ؟ »

صفق بيديه فى انبهار :

- « المحطة !! »

وعبر عدسات نظارتى المقربة ، رأيت منحدر تل خاليًا من النباتات ، وثمة مبنى متهـالك نصف دفين وسط أعشاب عالية ..

لم يكن هناك سور من أى نوع .. وإن تبينت بقايا واحد .. ثمة أعواد بارزة من الأرض تعلو كلاً منها

كرة فى محاولة ما للزخرفة .. لكن لا يربطها شىء ..
وبالطبع كانت الغابة تحيط بهذا كله ..

ضفة النهر كانت واضحة وعلى الضفة رأيت رجلاً أبيض يعتمر قبعة كأنها عجلة سيارة .. يشير لنا بلا توقف بذراعه كلها ..

وإذ تفحصت الدغل فوقه وتحته أكاد أقسم إننى ميزت حركة .. أشكالاً بشرية تنزلق هنا هناك ..

أوقفت المحركات فى حذر وتركت القارب ينزلق فوق الماء .. بينما راح الرجل على الشط يصيح ويطالبنا بالرسو ..

صاح المدير :

ـ « لقد هوجمنا ! »

ـ « أعرف .. أعرف .. كل شىء تمام .. »

قالها الرجل فى سرور لا يمكنك تخيله .. وأردف :

ـ « كل شىء تمام .. أنا مسرور .. »

ذكرتنى طريقته بشىء مضحك رأيته فى مكان ما .. وقد رحت أسأل نفسى وأنا أحاذى الضفة :

- « من يشبه هذا الرجل ؟ »

ثم تذكرت فجأة .. يبدو كالمهرج .. ربما كانت ثيابه بنية يومًا ما لكنها الآن مغطاة بكل ألوان الرقع : صفراء حمراء زرقاء .. حزام ملون حول خصره وقد جعله ضوء الشمس يبدو خليعًا مبهرجًا ..

له وجه طفل أشقر بلا لحية .. لا ملامح يمكن أن تلاحظها .. عينان زرقاوان صغيرتان .. البسمة والتقطيبة تتسابقان على وجهه كالشمس والظل فى واد تعصف به الرياح ..

- « خذ الحذر يا كابتن .. هناك جذع شجرة استقر هنا البارحة .. »

- « ماذا ؟ جذع آخر ؟ »

قلتها وأعترف أننى أطلقت سبة .. فقد أعددت نفسى لانتهاء هذه الرحلة الرائعة .. نظر لى المهرج وسألنى :

ـ « هل أنت إنجليزى ؟ »

صرخت من وراء عجلة القيادة :

ـ « وأنت ؟ »

كف عن الابتسام .. فسألته :

ـ « هل وصلنا فى الوقت المناسب ؟ »

هز رأسه نحو التل وقال :

ـ « إنه هناك .. »

وصار مكتئبًا فجأة .. إن وجهه كسماء الخريف التى تشرق فجأة ثم تتجهم فجأة ..

وحين اتجه المدير والرجال إلى الكوخ ـ مسلحين

حتى الأسنان - صعد ذلك الفتى إلى ظهر القارب .. قلت له :

- « لا أحب هذا .. إن هؤلاء الوطنيين فى الأحراش .. »

طمأننى أن كل شىء على ما يرام ، وقال :

- « إنهم أناس طيبون بسطاء .. وهم لا ينوون إيذاء أحد . »

ثم صحح الأمر :

- « ليس بالضبط .. على فكرة .. أعتقد أن قمرة قيادتكم بحاجة إلى تنظيف ! »

ثم نصحنى أن أبقى الغلاية موقدة كى أطلق الصفارة فى حالة حدوث متاعب ..

- « صفارة واحدة جيدة ستفيد أكثر من كل بنادقكم .. »

كان يثرثر كأنما يحاول أن يعوض كل فترات الصمت ، وقد اعترف أن هذه هى الحقيقة .. فسألته :

ـ « ألا تتكلم مع مستر (كورتز) ؟ »

ـ « أنت لاتتكلم مع ذلك الرجل وإنما تصغى إليه .. »

ثم لوح بذراعه وأردف :

ـ « أما الآن .... »

وفى لمح البصر كان مزاحه قد استحال إلى قمة القنوط واليأس . ثم فى اللحظة التالية عاد له مزاجه المرح ، وصافحنى بكلتا يديه بينما راح يتكلم :

ـ « أخوك البحار .. هذا شرف .. سرور .. أقدم لك نفسى .. روسى .. ابن قس .. ما هذا ؟ طباق إنجليزى ؟ طباق إنجليزى ممتاز ؟ تدخن ؟ هل من بحار لا يدخن ؟ »

بدأ التدخين يهدئه قليلاً .. وسرعان ما فهمت أنه فر من المدرسة وذهب إلى البحر فى سفينة ورسية .. ثم فر وعمل على سفن إنجليزية .. ثم وصل إلى هنا ..

- « لابد للمرء حين يكون صغيرًا من أن يجمع الخبرات والتجارب .. »

قاطعته فى دهشة :

- « هنا ؟ »

قال فى تقديس :

- « لايمكن أن تتنبأ بشىء .. هنا قابلت مستر (كورتز) .. »

لقد راح يجول فى أعماق البلاد خالى الذهن من أى خطر كأنه طفل رضيع .. راح يجول حول النهر عامين وحيدًا منعزلاً عن كل شىء وكل شخص ..

قال لى :

- « لست صغيرًا كما تتوهم .. أنا فى الخامسة والعشرين .. لقد أعددت لكم بعض الحطب .. هل رأيته ؟ كان هذا بيتى القديم .. »

أعطيته الكتاب الذى احتفظت بـه ، فبدا كأنما سيقبلنى وهتف :

ـ « الكتاب الوحيد الذى تركته وقد حسبت أننى فقدته .. »

وراح يقلب الصفحات فسألته :

ـ « هل كتبت التعليقات بالروسية ؟ لقد حسبتها مشفرة .. »

ضحك ثم استعاد جديته وقال :

ـ « بذلت الكثير من الجهد لأبعد هؤلاء القوم .. »

ـ « هل كانوا يريدون قتلك ؟ »

صاح :

ـ « لا .. لا .. »

فتابعت سؤالى :

ـ « إذن لماذا هاجمونا ؟ »

تردد ثم قال فى شىء من الخجل :

- « لايريدونه أن يرحل .. »

وهز رأسـه فى كثير مـن الغمـوض والحكمـــة .. وصاح :

- « أقول لك إن هذا الرجل قد جعل عقلى يكبر .. »

وفتح ذراعيه وهو يبتسم بعينيـه الصغيرتين كـاملتى الاستدارة ..

* * *

3

نظرت له فى دهشة .. هو ذا أمامى فى ثيابه الغريبة كأنما فر من فرقة ممثلى بانتومايم .. متحمس .. وجوده ذاته لايصدق وغير قابل للتفسير ومحير .. كان مشكلة لاحل لها .. من العسير فهم كيف وجد ولاكيف وصل إلى هنا .. وكيف بقى ؟ وكيف لم يتلاش ..

قال لى :

ـ « لقد ابتعدت قليلاً فقليلاً .. حتى وصلت لنقطة لاأعرف كيف أعود بعدها .. لايهم .. ثمة وقت متسع .. فقط أبعدوا (كورتز) عن هنا بسرعة .. أتصحكم بهذا .. »

شعرت نحوه بإعجاب .. ربما إلى درجة الحسد .. السحر جعله يبقى حيًا سالمًا فى بقعة كهذه .. ولم يكن يطلب من الدغل شيئًا إلا متسعًا يمكنه أن يتنفس فيه . لو أن روح المغامرة المطلقة النقية التى لاتحسب حساب شىء .. لو أن هذه الروح اختارت أن تحل فى بشر ، فهو هذا الفتى ..

أما عن (كورتز) فهو لم يسع له .. لقد هبط عليه وتقبل هو الأمر بنوع من القدرية .. لكنى أجد أن هذا اللقاء هو أعظم خطر مر بهذا الفتى حتى اللحظة ..

أعتقد أن (كورتز) كان بحاجة إلى مستمعين .. ويبدو أن الفتى ظل يسمعه ليالى بأكملها ..

قال الفتى متذكرًا :

- « تكلمنا عن كل شىء .. نسيت أن هناك شيئًا اسمه النوم .. لم يبد لى أن الليل طوله أكثر من ساعة .. كل شىء .. »

- « ومن وقتها لم تتركه ؟ »

حكى لى فى فخر كيف أنه مرض مستر (كورتز) خلال مرضين .. لكن - كقاعدة عامة - كان (كورتز) يجول وحيدًا فى أعماق الدغل ..

- « كنت أنتظر أيامًا وأيامًا حتى يعود .. »

- « وماذا كان يفعل ؟ يستكشف أم ماذا ؟ »

- « بالطبع .. لقد اكتشف الكثير من القرى وبحيرة .. لكن لا أعرف في أى اتجاه .. من الخطر أن تسأل أكثر من اللازم .. لكن المؤكد أنه كان يحصل على الكثير من العاج .. هناك الكثير من الخراطيش النارية هنا .. »

- « تعنى أنه غزا البلاد ؟ »

هز رأسه .. فسألته :

- « ليس وحده طبعًا .. »

قال إن سكان القرى حول البحيرة ساعدوه .. وأضاف :

- « إنهم يعبدونه .. »

كان من الغريب أن ترى هذا الخليط من الشوق والنفور لديه عند الكلام عن (كورتز) .. لقد أفعم الرجل حياته ..

قال لى :

- « ماذا تتوقع ؟ لقد جاءهم بالبرق والرعد ..

ولم يكونوا قد رأوا شيئًا كهذا .. وهو رجل شنيع .. يمكنه أن يكون شنيعًا .. لاتستطيع الحكم على هذا الرجل كما تستطيع مع رجل عادى .. كى أعطيك فكرة عنه .. لقد أراد أن يطلق النار على ذات يوم .. لكننى لا ألومه .. »

صحت مستنكرًا :

- « يطلق عليك النار ؟ لمه ؟ »

- « حسن .. كان لدى القليل من العاج الذى أعطانيه زعيم تلك القرية .. لكنه أراده ولم يسمح للمنطق أن يتكلم .. وأوضح أنه سيقتلنى ما لم أعطه العاج ، لأنه يريده .. ولاشىء فى الأرض يمكن أن يمنعه من قتل من يرغب فى قتله .. أعطيته العاج .. لكننى لم أرحل .. »

- « كان على أن أكون حذرًا حتى تعود صداقته لى .. بعدها مرض .. كان يعيش أكثر الوقت فى القرى المجاورة للنهر .. لقد عانى هذا الرجل كثيرًا ، وكان يمقت هذا كله .. لكنه كان مصرًا على البقاء .. كان يردد أنه راغب

فى الرحيل لكنه لا يرحل أبدًا .. وينطلق فى رحلة أخرى من أجل العاج ، وينسى نفسه وسط أولئك القوم .. »

- « لكنه مجنون إذن ! »

اعترض فى كبرياء .. مستر (كورتز) ليس مجنونًا .. لو سمعته يتكلم منذ يومين لما جروت على أن أصفه كذلك .. كنت قد رفعت نظارتى المقربة فى أثناء الكلام ورحت أتفقد الشط .. لم تكن الأحراش تتحرك كأنها القناع .. وكانت ثقيلة كباب سجن .. كانت تبدو وكأنها تخفى الكثير .. كأنما هى تخفى الكثير من الترقب الصبور والصمت الذى لا يخترق ..

كان الروسى يحكى لى كيف توارى (كورتز) لفترة ، ثم عاد مع مجموعة من رجال قرى البحيرات . عازمًا فيما يبدو على شن غارة على مجموعة أخرى من القرى .. من الواضح أن شهوة الحصول على المزيد من العاج قد انتصرت على رؤاه الأقل مادية .. لكن حالته ساءت فجأة ..

- « سمعت أنه راقد عاجزًا لذا جازفت بأن آتى لأرى .. »

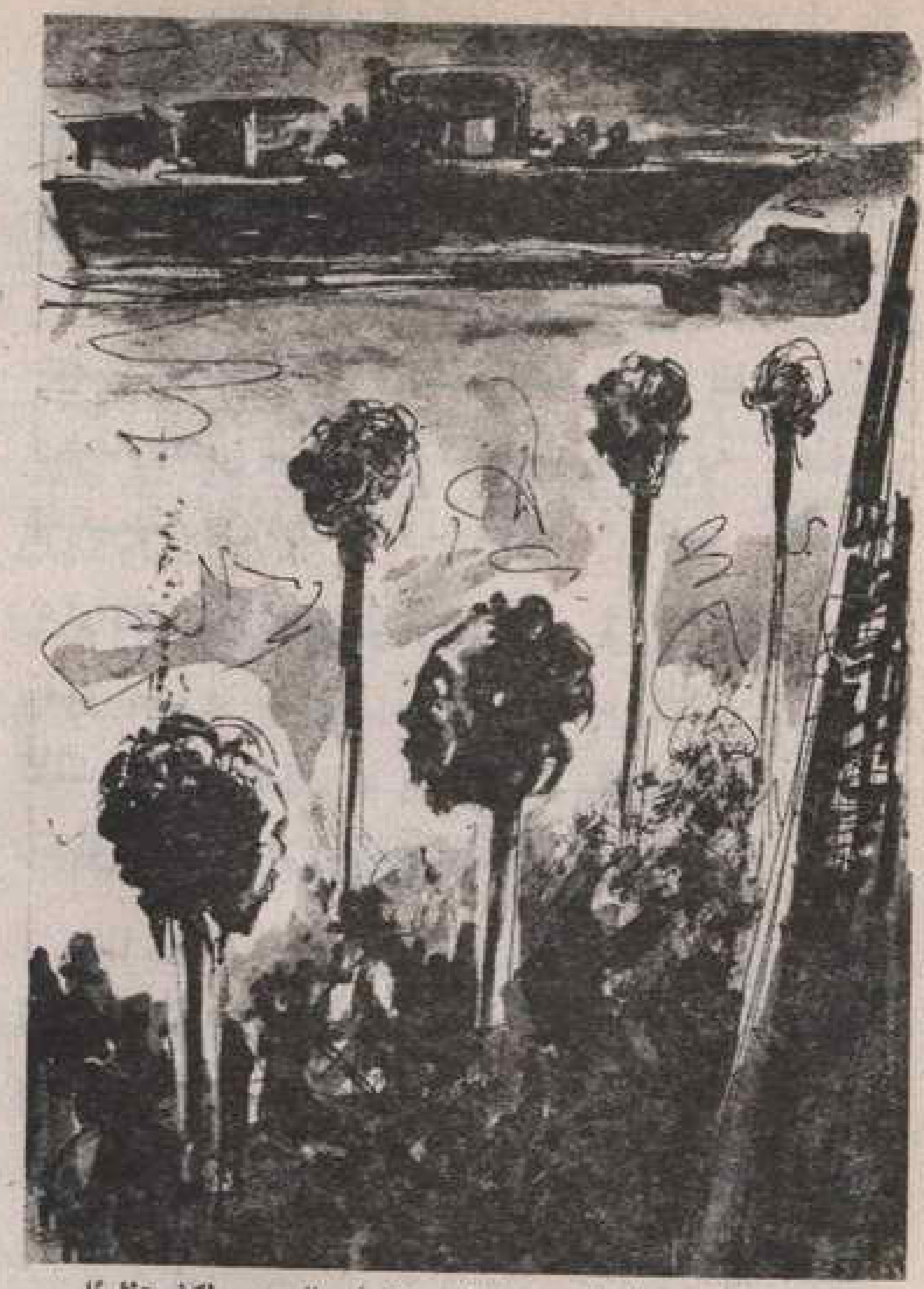
صوبت النظارة إلى البيت .. لم تكن هناك علامات حياة ..

قمت بتحريك الضبط قليلاً فوثبت بقايا السور إلى عدسات النظارة .. وكانت نتيجة هذا الفعل أننى أرجعت رأسى إلى الوراء كأنما تلقيت ضربة .. هذا هو ما حسبته من قبل محاولة للزخرفة وكنت مخطئًا ..

لم تكن هذه الأشياء المستديرة زخرفة .. لكنها رموز معبرة محيرة .. إنها غذاء للأفكار .. لكنها كذلك غذاء للنسور .. على الأقل بالنسبة للنمل الذى يتسلق السياج فى حرية تامة ..

ربما كانت هذه الرءوس المغروسة على العصى أكثر تأثيرًا لو أن وجوهها لم تدر نحو البيت .. فقط أولها كان ينظر لى ..

لكننى لم أصدم كما تتصورون .. إن الحركة التى أجفلت بها كانت تعبر عن الدهشة أكثر منها عن الرعب ..



ربما كانت هذه الرءوس المغروسة على العصى أكثر تأثيرًا
لو أن وجوهها لم تدر نحو البيت ..

كان الوجه أسود مجعدًا كأنما هو ينام فوق العمود .. والأسنان البيضاء تلتمع كأنما هو يبتسم كذلك .. يبتسم من حلم لاينتهى فى نعاسه الغامض هذا ..

أنا لا أكشف أسرارًا تجارية، لكن المدير قال لى فيما بعد إن أساليب مستر (كورتز) هذه خربت المنطقة .. ليس لى رأى فى الموضوع لكن أريد منكم أن تفهموا أن هذه الرءوس مشروع غير مربح على الإطلاق .. هى فقط ترينا كيف أن مستر (كورتز) لايستطيع كبح شهواته .. ثمة شىء يفصح عن نفسه فى أوقات معينة لاتستطيع بلاغته العظيمة وحدها أن تمنحه إياه ..

لابد أن الوحدة قد علمته أشياء عن نفسه لم يعرفها من قبل .. همست له بكلمات خلبت لبه .. ترددت فى أعماقه الخاوية كأنها الصدى ..

خفضت النظارة فبدا الرأس الذى كان قريبًا منى إلى حد أن بوسعى الكلام معه .. بدا بعيدًا جدًا ..

قال لى الروسى إنه لم يجسر على أن ينزل هذه

الـ .. هذه الرموز .. لم يكن يخاف الوطنيين فهم لن يتحركوا إلا إذا أمرهم مستر (كورتـز) .. فسطوة الأخير عليهم مذهلة ..

إن زعماء القبائل يأتون كل يوم كى يروه .. وهم يزحفون على ركبهم حين يقتربون ..

صحت :

ـ « لا أريد سماع شىء عن الطقوس التى يمارسونها حين يرون (كورتز) .. »

لسبب ما شعرت أن هذه التفاصيل أكثر بشاعة من تلك الرءوس المعلقة على السور .. لقد شعرت بأننى فى كون متوحش حيث الوحشية الخالصة الخام شىء معقول .. بل ومسموح له بالوجود تحت الشمس ..

لم أصغ لتفسيراته للأمر من أن هذه الرءوس كانت رءوس متمردين .. وقد أدهشته بضحكتى .. متمردون ! ما الكلمة الجديدة التى سأسمعها ؟ لقد سمعت عن الأعداء والمجرمين والعمال .. ثم جاء دور المتمردين .. لكم بدت هذه الرءوس المتمردة هادئة الآن على أوتادها ..

قـال الفتى :

ـ « أنت لاتتصور كم أن هـذه الحيـاة تضغط علـى رجل مثل (كورتز) .. »

ـ « لكنك تتصور ذلك ؟ »

ـ « أنا رجل بسيط بلا أفكـار عظيمـة .. لا أبغى شيئًا من أحد .. كيف تقارننى به ؟ »

وتأججت عواطفه حتى انهار أخيرًا فقال :

ـ « أنا لا أفهم .. حاولت جهدى كى أبقيـه حيًا .. ولايد لى فى هذا كله .. لاتوجد هنا قطرة دواء ولا لقمـة من الطعام المعقول منذ شهور .. لقد تركوه منبوذًا .. يا للعار ! تصور رجلاً كهذا بأفكار كهذه .. يا للعار ! أنا لم أنم منذ عشرة أيام .. »

وضاع صوته فى هدوء الظلام .. كان الكوخ قد غاب فى الظلام بينما ظللنا نحن فى الشمس .. لاحياة علـى الشاطئ ..

فجأة قرب ركن البيت ظهر حشد من الرجال كأنما نبتوا من الأرض .. كانوا يمشون وسط العشب الذى يبلغ الخصور حاملين محفة مرتجلة .. وفجأة من الفراغ دوت صرخة كأنها سهم لتخترق السكون ليستقر فى قلب الأرض ..

وكأنه بمفعول السحر تدفق من الدغل سيل من الرجال العراة يحملون الرماح والدروع والسهام والنظرات الموحشة .. اهتزت الأحراش وتأرجح العشب .. ثم تصلب كل شىء فى سكون مترقب ..

قال الروسى :

ـ « الآن لو لم يقل لهم الشىء الصحيح فقد انتهى أمرنا .. »

كان الرجال الذين يحملون المحفة قد تصلبوا كأنما هم حجارة ، بينما هم متجهون إلى القارب ..

ورأيت الرجل الذى على المحفة يجلس ويرفع ذراعه .. فقلت :

ـ « لنأمل أن الرجل الذى يجيد الكلام سيجد سببًا لإنقاذنا هذه المرة . »

واستأت من سخف خطورة موقفنا .. وكأن وجودنا تحت رحمة هذا الشبح المتوحش ، هو ضرورة مهينة ..

رأيت الرجل يرفع يده ويأتى بإشارات .. وعيناه تلمعان فى رأسه الواهن .. (كورتز) .. هذه كلمة معناها (قصير) فى الألمانية .. أليس كذلك ؟ كان فى الاسم من الحقيقة قدرما فى أى شىء آخر فى حياته .. وموته .. لابد أن طوله لايقل عن سبعة أقدام .. لقد سقطت الملاءة وظهر جسده .. مثيرًا للشفقة مرعبًا ..

كان بوسعى أن أرى ضلوعه .. وعظام ذراعه ..

كان صورة متحركة للموت نحتت من عاج قديم ، تهز يدها مهددة فى جمع الرجال المصنوعين من برونز برّاق ..

رأيته يفتح فاه فبدا كأنما يحاول التهام الهواء كله .. الأرض كلها .. ثم سقط ..

اهتزت المحفة وتقدم حمالوها .. ولاحظت فى الوقت ذاته أن حشد المتوحشين بدأ يختفى .. كأن الغابة التى بصقتهم قد استنشقتهم ثانية إلى داخلها ..

وكان المدير يمشى جواره يهمس بشىء فى أذنه .. وقد نقلوه إلى كابينة صغيرة على القارب البخارى .. مجرد مكان لفراش ومقعد .. كانوا قد أحضروا مراسلاته وخطاباته ، فراحت يده تعبث فى وهن بين هذه الأوراق .. وقد تسمرت لما رأيت النار فى عينيه .. لم يبد متألمًا .. وكان ظله راضيًا هادئًا ..

فتح أحد الخطابات ونظر لى مباشرة فى عينى، وقال :

- « أنا مسرور .. »

هناك من كتب له عنى .. إن التوصيات تظهر إلى السطح ثانية ..

وقد أثارت دهشتى كمية الصوت التى خرجت منه دون جهد .. حتى من دون أن يبعد شفتيه .. صوت ! أى صوت ! كان جادًا عميقًا رنانًا بينما الرجل لا يبدو قادرًا على

الهمس .. لكن كانت فيه قوة كافية كي يحسم أمرنا كما ستعرفون فيما بعد .

ظهر المدير صامتًا على الباب .. خرجت فأسدل الستار من خلفي .. وكان الروسي يرمق الساحل .. تابعت نظرته فرأيت أشكالاً سوداء عن بعد .. وقرب النهر شبحان برونزيان يستندان إلى رمحين طويلين ، وعلى رأس كل منهما غطاء رأس جميل من الجلد المبرقش ..

ومن اليمين إلى اليسار تحرك شبح متوحش جميل لامرأة .. كانت تمشي بخطى محسوبة ، ملفوفة في ثياب مخططة .. تطأ الأرض بفخر .. مع رنين حليها وزينتها البربرية ..

رأسها شامخ وشعرها مصفف كأنه خوذة .. وقد بلغت الحلى النحاسية ركبتيها ومرفقيها .. وعدد لايحصى من قلائد الخرز حول عنقها .. وكان هناك شيء مثير للتوجس في مشيتها المصممة ..

وسط هذا الصمت بدا كأن الدغل الرهيب ينظر لها .. اتجهت إلى القارب البخارى ووقفت تواجهنا صامتة .. ظلها الفارع يسقط على صفحة الماء .. على وجهها أسف متوحش وألم عميق ..

هناك وقفت تنظر لنا دون حركة .. كأنما ترعى هدفًا غامضًا ..

غمغم الفتى الواقف جوارى .. وتذمر المسافرون من خلفى .. نظرت لنا كأنما حياتها كلها تتوقف على ثبات هذه النظرة .. فجأة فتحت ذراعيها ورفعتهما إلى السماء كأنما تبغى لمسها ..

واستدارت عائدة إلى الأحراش على اليسار .. مرة واحدة فقط استدارت ونظرت لنا قبل أن تتوارى ..

قال الفتى فى عصبية :

ـ « لو طلبت أن تصعد إلى القارب ، فلربما قتلتها رميًا بالرصاص .. لقد جازفت بحياتى كل يوم طيلة أسبوعين كى أبعدها عن الدار .. تشاجرت معها

بسبب أنها لم تعجب بالخرق التى كنت أنخرها لإصلاح ثيابى .. ربما كان هذا هو السبب .. لقد شكتنى لـ (كورتز) وراحت تشير لى وهى تتكلم .. لا أفهم لغة تلك القبيلة ، لكن من حسن حظى أن (كورتز) كان مريضًا بحيث لم يهتم بكلامها .. لا أفهم .. على كل حال قد انتهى هذا كله الآن .. »

هنا سمعت صوت (كورتز) من وراء الستار .

- « أنقذنى .. أنقذ عاجى أيها المنحط .. لاتقل لى شيئًا .. أنت تعرقل خططى .. مريض مريض ! لست مريضًا كما تحب أن تعتقد سأنفذ أفكارى برغم كل شىء .. سأعود وأريك ما يجب عمله .. أنت تعوق عملى .. أنا .. »

هنا خرج المدير وتأبط ذراعى واقتادنى جانبًا وقال :

- « حالته عسيرة .. عسيرة .. »

وجد من الضرورى أن يتنهد لكنه لم ير ضرورة لأن يبدو آسفًا ..

- « فعلنا كل ما يمكن من أجله .. ألم نفعل هذا ؟

لكن يجب أن نعترف بأنه آذى الشركة أكثر مما أفادها .. لم يفهم أن الوقت ليس ملائمًا للأعمال العنيفة .. يجب أن نكون حذرين .. تلك سياستى .. إن المنطقة مغلقة بالنسبة لنا لفترة . هذا مؤسف ! برغم أنه مازال لدينا الكثير من العاج أكثره من الحفريات .. لكن انظر مدى حرج موقفنا .. والسبب ؟ لأن أسلوبه لم يكن سليمًا .. »

سألته ناظرًا إلى الشط :

ـ « هل تعتبر الأسلوب غير سليم ؟ »

صاح فى حرارة :

ـ « بلا شك .. ألا ترى هذا ؟ »

قلت بعد قليل :

ـ « لا أرى أن هناك أسلوبًا على الإطلاق .. »

وأردفت :

ـ « على كل أنا أعتقد أن (كورتز) رجل متميز .. »

جاء الروسى ودق بإصبعه على كتفى لينبهنى إلى ما يقول :

- « أخى البحار .. لا أستطيع أن أخفى معرفة أمور قد تؤثر فى سمعة مستر (كورتز) .. »

كنت أعتبر المستر (كورتز) فى قبره بالفعل الآن ، لكن الفتى أعتبره خالدًا لا يموت .. فقلت له :

- « تكلم .. »

قال إنه لو لم يشعر بأننا زميلان فى المهنة ، لما تكلم أصلاً .. لأنه يشعر بأن هؤلاء الرجال البيض لا يدخرون نية طيبة تجاه مستر (كورتز) ..

قلت له إنه على حق ، ونصحته أن يبحث عن أصدقاء من المتوحشين يحمونه لو كان له بينهم أصدقاء ..

- « الكثير منهم . »

وقال لى همسًا إن (كورتز) هو الذى أمر المتوحشين بالهجوم على القارب البخارى ..

ـ « كـان يكره فكرة أن يؤخذ بعيـدًا . لكنى لا أفهـم هذه الأمـور .. أنـا رجـل بسيط .. فكر فى أن هـذا سيجعلكم تعودون من حيث جئتم إذ تحسبونه قد مـات .. ولم أستطع منعه .. »

ثم أضاف :

ـ « سأرحل أنا .. هناك قارب وثلاثة رجـال سـود ينتظرون على مقربة .. »

وافقته .. فتناول قبضة من التبغ الخاص بى ، وقال :

ـ « هذه أمور بين البحارة وبعضهم .. كمـا تعلم .. طباق إنجليزى ممتاز .. »

وقبـل الرحيل توقف وسـألنى عمـا إذا كـان لـدى حذاء .. ورفع قدميه فوجدت أن حذاءيه لا نعل لهمـا .. وإن تم ربط الأطراف بالحبـال كـالصندل .. أعطيتـه حذاء قديمًا عندى ، فتفحصه فى إعجاب ، ثم وضعـه تحت إبطه .. بدا كأنما هو راض تمامًا عن استعداده للمواجهة القادمة مع البرية ..

قـال :

- « رباه ! لن أقابل رجلاً كهذا مرة أخرى أبـدًا .. لو أنك سمعته يتلو الشعر .. شعر ! ومن تأليفه ! »

واتسعت عيناه كأنما يستعيد تلك الخبرات، وأضاف :

- « لقد جعل عقلى يتسع .. »

- « وداعًا .. »

فصافحنى وتوارى فى الظـلام .. أحيانًا أتسـاءل عمـا إذا كنت قد رأيته حقًا .. عمـا إذا كـان من الممكن أن توجد ظاهرة عجيبة كهذه !

صحوت بعد منتصف الليل لألقى نظرة ..

هناك على التل كانت نار هائلة تشتعل .. وكان أحد رجالنا مستعينًا بعدد من رجالنا السود، يحرس العـاج .. لكن فى الغـابة كانت أضواء حمـراء متراقصـة تحدد بالضبط الموضع الذى أقام فيه عبدة مستر (كورتـز) معسكرهم .. كى يسهروا فيه سهرتهم الشاقة ..

ثمة صوت طبلة رتيب يدوى فى الهواء .. وجاء صوت مجموعة من الرجال يغنون تعاويذ غامضة كل لنفسه .. دندنة كأنها طنين النحل تبعث تأثيرًا منومًا على حواسى نصف النائمة ..

أعتقد أننى نمت وأنا استند إلى الحاجز ، حتى اندلعت صرخات حادة .. جنون غامض أيقظنى فى حيرة .. ثم سرعان ما انتهى من جديد وعادت الدندنة ..

نظرت إلى القمرة فرأيت ضوءًا لكن مستر (كورتز) لم يكن هناك .

لولا أننى كنت نصف غاف ، لأطلقت صرخة رعب .. الحقيقة هى أن الرعب المجرد الوحشى تملكنى .. وهو لا يمت بصلة لأى رعب مادى ..

سرعان ما تغلبت على هذا الهلع الأولى ، وهدأت قليلاً .. حتى إننى لم أصرخ أو أستدعى الآخرين ..

توجهت إلى الشاطئ .. والسبب هو أننى شعرت

بالحاجة إلى مواجهة الكابوس الذى صنعته لنفسى .. كنت بحاجةٍ إلى هذه التجربة دون أن أشرك أحدًا سواى فيها ..

فما أن بلغت الشط حتى رأيت طريقًا بين الأعشاب ..

أذكر الفرحة التى قلت بها لنفسى :

ـ « الرجل لايقدر على المشى بل هو يزحف على أربع .. سأظفر به .. »

كان العشب مبتلاً بالندى ..

فى خيالى رأيت العجوز ذات القطة جالسة تنسج .. ورأيت المسافرين يطلقون الرصاص لأعلى من بنادق الونشستر ..

قلت لنفسى إننى لن أعود إلى القارب أبدًا .. وتخيلت نفسى وحيدًا بلا سلاح فى الأحراش حتى أشيخ ..

أفكار بلهاء .. ولقد واصلت تتبع الأثر .. كان الليل صافيًا كأنه فضاء أزرق تقف فيه أجسام سوداء متصلبة ساكنة ..

دنوت منه ولو لم يكن قد سمعنى لسقطت فوقه .. لكنه نهض فى الوقت المناسب .. شاحبًا مهتزًا كأنه بخار خرج من الأرض .. لقد قطعت عليه الطريق ببراعة لكن حين واجهته ثبت إلى رشدى .. رأيت الخطر بحجمه الحقيقى ..

ماذا لو صرخ ؟ برغم أنه واهن جدًا لكن صوته مازال قويًا ..

قال لى :

- « ابتعد .. أخفِ نفسك ! »

نظرت خلفى فوجدت أننا على بعد ثلاثين ياردة من أقرب نار .. قلت له :



دنوت منه ولو لم يكن قد سمعني لسقطت فوقه ..
لكنه نهض في الوقت المناسب .. شاحبًا مهتزًا ..

ـ « هل تدرك ما تفعله ؟ »

ـ « تمامًا .. »

ورفع صوته بما بدا لى كأنه صراخ .. فقلت لنفسى : لو أحدث جلبة فلسوف نضيع ..

ـ « سوف تضل طريقك .. »

أحيانًا يهبط الإلهام على المرء .. لقد قلت الشىء الصحيح برغم أنه ما كان ليضل طريقه أبدًا كما ضله فى تلك اللحظة .. اللحظة التى بدأت أواصر صداقتنا تتكون فيها ..

قال :

ـ « كنت على حافة إنجازات عظيمة .. والآن جاء هذا الوغد .. »

قلت مؤكدًا :

ـ « نجاحك فى أوروبا لايحتاج إلى إثبات .. بالمناسبة .. لو صرخت سأضطر إلى كتم نفسك .. »

لم أكن أحب أن أكتم أنفاسه كما تعلمون .. ولو فعلت لما أجدانى هذا فتيلاً ، لكنى كنت أريد أن أحطم سحر البرية المسيطر عليه .. السحر الذى يناديه ويحيى فيه غرائز منسية متوحشة . هذا فقط - كما اقتنعت - كان هو ما يقوده مبهورًا مفتونًا إلى الدغل .. إلى وهج النيران .. وقرع الطبول ..

لم يكن الخطر هنا هو أن أتلقى ضربة قاتلة على رأسى ، برغم أننى كنت أفهم هذا الخطر جيدًا ، ولكن أننى مضطر للتعامل مع كائن لايمكن أن أروق له .. بل ربما اضطررت مثل الزنوج إلى أن أتضرع له كى يقتنع ويهدأ .. لكنه كان قد تحرر من كل قيود الأرض .. ركل الأرض كى يبعدها عنه ..

لقد تبادلنا بعض العبارات لكنها كانت كأنها تقال فى الأحلام والكوابيس .. الروح ! لو كان هناك رجل فى هذا العالم قد تكلم مع روح فأنا هو ! لم يكن لى

من منجى ولا حل إلا قتله وقتها وحيث كان .. لكن كان فى هذا خطر لا بأس به ، لو فكرنا فى الضوضاء التى ستحدث ..

لكن روحه كانت قد جنت .. لقد أصابتها الوحدة وسط البرية بالجنون .. وكان علىّ أن أقترب منها فتشوه كل ما أعرفه عن الإنسانية .. رأيت لغز الروح التى لم تكن لديها ضوابط .. لم يكن لديها إيمان .. لم يكن لديها خوف .. لكنها تحارب نفسها طيلة الوقت ..

وحين استطعت أخيرًا أن أعود به وأرقده على الأريكة ، كانت قدماى تهتزان من تحتى كأنما حملت طنًا على ظهرى .. برغم هذا لم أفعل إلا أن أسندته وذراعه العظمية حول عنقى ، ولم يكن أثقل من طفل ..

فى ظهيرة اليوم التالى رحلنا .. كان الجمع الذى

كنت أشعر به طيلة الوقت خلف ستائر الأشجار ، قد خرج ليملأ الفسحة مغطيًا المنحدر بكتلة من الأجساد البرونزية الراجفة .. أطلقت المحركات ، وراحت ألف عين ترمق شيطان المياه وهو يضرب الأمواج مبتعدًا ، قاذفًا بالدخان الأسود فى الهواء ..

حملنا (كورتز) إلى قمرة القيادة ، حيث كان هناك الكثير من الهواء .. وعلى الأريكة راح يرمق خصاص النافذة المفتوحة .. كانت هناك دوامة بين الأجساد وظهرت المرأة ذات الشعر المصفف كخوذة .. ركضت نحو حافة النهر ، ومدت يديها وصرخت بشىء ما فردد الحشد صيحتها بأعلى صوت ..

سألت :

- « هل تفهم هذا الكلام ؟ »

ظل ينظر خلفى بعينين مشتاقتين تختلطان بتعبير يوحى بالمقت ..

لم يرد لكنه ابتسم .. ابتسامة لامعنى لها .. ظهرت على شفتيه عديمتى اللونِ اللتين ارتجفتا بعد هذا ..

وقال :

ـ « هل يمكن ألا أفعل ؟ »

أطلقت صفارة القارب ، لأننى رأيت ركاب القارب معى يتأهبون ببنادقهم وكأنما هم يترقبون صيدًا ممتعًا .. فلما دوى الصفير دب الرعب فى كتلة الأجساد .. وصاح أحدهم على القارب :

ـ « لا .. لا تفزعهم فيفروا .. »

لكنى جذبت الخيط مرارًا .. ففر القوم هلعًا من الصوت .. فقط لم تتحرك تلك المرأة الخارقة البربرية ومدت ذراعيها نحو النهر بشكل مسرحى ..

عندها بدأ المعتوهون على القارب حفلهم ، ولم أعد أرى شيئًا من دخان الطلقات ..

خرج النهر من قلب الظلام بسرعة .. يحملنا للبحر بضعف السرعة التى جئنا بها .. وكذا راحت روح (كورتز) تنساب منه بسرعة إلى بحر الأبدية ..

كان المدير هادئًا جدًا فلا شىء يقلقه الآن ..

أصدر (كورتز) صوتًا .. صوتًا ! دوى عميقًا حتى النهاية .. لقد قاوم ! قاوم .. بقايا مخه المنهك تسكنها الظلال الآن .. أشباح الثروة والشهرة .. كان يتكلم عن «محطتى» .. «مهنتى» .. «خطيئتى» .. بحرارة ملتهبة ..

أحيانًا كان يقترب من الطفولة ، ويتمنى أن يلقاه الملوك فى محطات القطار لدى عودته من لامكان .. حيث نجح فى تحقيق عظائم الأمور ..

وكان يقول :

- « ستريهم أن فيك شيئًا عظيم النفع .. وعندها لن تكون هناك حدود لتقديرهم لكفاءاتك .. »

وكانت المنحنيات تتكرر فى مسار القارب .. كأنها نفس المنحنى الأزلى .. بنفس الأشجار التى ترمق تلك القطعة الكئيبة القادمة من عالم آخر .. الأشجار التى سبقت ظهور التغيير .. الغزو .. التجارة ..

ذات يوم قال لى (كورتز) :

ـ « أوصد النافذة .. لا أتحمل أن أرى هذا .. »

فعلت كما قال .. فقال :

ـ « آه .. لكنى سأعتصر قلبك برغم هذا ! »

قالها للبرية الغامضة ..

احتجنا للاستقرار فى جزيرة بعض الوقت لإجراء إصلاحات ، وكانت هذه أول مرة تهتز فيها ثقة (كورتز) .. ذات صباح أعطانى بعض الأوراق وصورة فوتوغرافية كلها مربوطة برباط حذاء .. قال لى :

- « احتفظ بها لى .. هذا الوغد المؤذى (يقصد المدير) يمكن أن يتلصص على صناديقى لو تغافلت عنه .. »

عند الظهيرة وجدته نائمًا على ظهره ينظر لأعلى ، فكدت أنسحب لكن سمعته يغمغم :

- « عش كما يجب .. ثم مت .. مت .. »

ولم يقل شيئًا آخر .. هل كان يسمَع خطبةً فى نومه أم هى بقايا شىء فى جريدةً ؟ كان يكتب لبعض الصحف وكان يأمل فى أن يعاود ذلك ..

كانت ظلمته غير قابلة للاختراق ، وكنت أنظر له كما أنظر إلى رجل يرقد فى قاع أخدود حيث لا تصل الشمس أبدًا ..

لكن لم يكن لدى وقت كاف له لأننى كنت أساعد الميكانيكى فى إصلاح السلندرات المثقوبة وغير ذلك كنت أعيش فى كتلة جهنمية من الصدأ والمطارق

والمثاقب ، وكلها أشياء أكرهها لأننى لا أجد نفسى فيها ..

ذات ليلة دخلت عليه بشمعة فأفزعنى أن أسمعه يقول :

ـ « أنا أرقد هنا فى الظلام بانتظار الموت .. »

كان الضوء على بعد قدم من عينيه .. وفـ وجدتنى مرغمًا على أن أقول :

ـ « كلام فارغ ! »

ووقفت أمامه كأنما أنا مسمر ..

لم أر قط شيئًا يشبه ذلك التغير الذى طرأ على ملامحه .. وأتمنى ألا أراه ..

لم أتأثر لكنى افتتنت .. رأيت فى وجهه العاجى سمات كبرياء وقوة بلا رحمة وذعر جبان .. سمات يأس عنيف .. هل يعيش من جديد حياته بكل ما فيها

من شهوة وإحباط وألم فى هذه اللحظة من المعرفة الخارقة ؟

صاح مرتين .. صيحة هى أقرب إلى التنفس :

- « الهول ! الهول ! »

أطفأت الشمعة وغادرت القمرة ..

كان المسافرون يلتهمون العشاء فجلست أمام المدير ، الذى نظر لى متسائلاً .. لم أرد فاسترخى فى مقعده وعلى فمه تلك الابتسامة الغامضة التى يختم بها على سفالته ..

ذباب كثير يحوم حول المصباح وعلى المفرش وعلى أيدينا ..

فجأة أدخل خادم المدير رأسه الوقح الأسود من الباب وقال فى ازدراء :

- « مستاه كورتز .. هو موت .. »

هب الجميع ليروا ، وبقيت أكمل عشائى .. لابد أنهم اعتبرونى قاسيًا بوحشية .. لكنى لم آكل الكثير .. فى الخارج ظلام موحش .. ظلام قاس .. لكنى أعرف أننا سندفن شيئًا ما غدًا ..

لقد كادوا يدفنوننى معه ..

كما ترون لم ألحق بـ (كورتز) هناك وساعتئذ .. بقيت أحلم بالكابوس حتى النهاية .. مضحكة هى تلك الحياة .. ترتيب غامض من المنطق القاسى لغرض ما .. كل ما تأملون منها هو بعض المعرفة لأنفسكم ..

لقد تصارعت مع الموت .. وكانت تلك أسوأ مباراة يمكن أن تتخيلوها ..

إنها تحدث فى فراغ رمادى دون أرض تحت قدميك .. ولا شىء حولك .. ولا مشاهدين ولا مجد .. ولا الرغبة فى الفوز ..

لو كانت هذه هى صورة الحكمة العظمى ، فإن الحياة لغز أكثر تعقيدًا مما نحسب ..

كانت تلك آخر فرصة لى لأقول شيئًا ذا بال قبل أن أموت ، لكنى لم أجد ما يقال .. لذا أقول إن (كورتز) كان شخصًا متميزًا .. كان لديه ما يقال وقد قاله ..

ولأننى دنوت من حافة الموت مثله ، فإننى أفهم نظرته .. العينين اللتين لاتريان اللهب لكنهما تريان الكون كله ، وتخترقان كل القلوب التى تخفق فى الظلام ..

لقد لخص كل شىء وأصدر حكمه :

- « الهول ! »

لقد كان رجلاً مرموقًا .. وكانت كلماته تحوى الاقتناع .. تحوى التمرد .. تحوى مذاق الحقيقة .. لها رنين خليط من الرغبة والمقت ..

لقد خطا الخطوة الأخيرة فوق الحافة ، أما أنا فقد سمح لى القدر بأن أتراجع بقدمى المترددة ..

ربما تتاح لنا كل الحكمة .. كل الحقيقة .. كل الصدق فى اللحظة القصيرة التى نخطو فيها فوق حافة الظلام ..

* * *

ما زالت أصداء بلاغة (كورتز) تصلنى بعد كل هذه الأعوام .. وفى المدينة رحت أرى الناس يركضون فى الشوارع يتحايلون على سرقة بعض المال من بعض ، ويلتهمون الكعك بسرعة ، ويعبرون الطرقات .. أراهم فأكاد أضحك لأن فى تظاهرهم بالحنكة شىء من الإدعاء .. إن أحدهم لايعرف عن الأمر قدر ما أعرف ..

أجسر على القول إننى لم أكن على ما يرام فى تلك الأيام بعد عودتى إلى المدينة .. لم يكن من شىء يغفر

سلوكى الغريب ، لكن حرارتى لم تكن طبيعية وقتها .. وأصرت عمتى الطيبة على أن تمرضنى ، لكن لم تكن قوتى هى التى بحاجة إلى تمريض .. كان خيالى هو الذى يحتاج إلى أن يهدأ قليلاً ..

كانت معى مجموعة أوراق (كورتز) لا أعرف بالضبط ما أفعله بها .. لقد توفيت أمه مؤخرًا ..

وذات يوم جاءنى رجل حليق الوجه يضع عوينات مذهبة الإطار وله طابع رسمى ، ووجه لى بعض أسئلة غير مباشرة فى البداية ثم صارت خانقة لأنه يرغب فى الحصول على (بعض المستندات) .. ولم أندهش لطلبه لأننى تشاجرت مرتين مع المدير على نفس الموضوع ..

رفضت طلب المدير ، وكذا رفضت طلب هذا الموظف .. لذا بدا مهددًا وقال إن من حق الشركة

أن تحصل على كل ما معى من أوراق .. وأن تحصل على أية معلومة عن (مقاطعاتها) ..

وقال :

- « لابد أن علم مستر (كورتز) ببعض الأماكن المجهولة لنا، هو علم واسع ودقيق .. بفضل قدراته الخاصة والظروف القاسية التى كان فيها .. لهذا .. »

قلت له إن مستر (كورتز) لم يكن يهتم بأشياء تعنى الإدارة ..

هنا توسل باسم العلم :

- « ستكون خسارة لا تقدر بمال لو .. إلخ ... إلخ .. »

عرضت عليه التقرير الخاص بـ (كبح العادات الوحشية) وانتزعت الملحوظة التى كتبها (كورتز) فى نهايته ..

أخذه فى لهفة .. ثم بدا عليه الإزدراء وقال :

- « ليس هذا هو ما نملك الحق فى توقعه .. »

قلت له :

- « لاتتوقع شيئًا آخر .. فلاتوجد سوى خطابات شخصيةً .. »

انصرف مع تهديد بإجراءات قانونية .. ولم أره ثانية ..

ثم جاءنى من يعتبر نفسه (ابن عم كورتز) بعد يومين .. وكان متلهفًا كى يسمع أخبار لحظات قريبه الأخيرة .. وأفهمنى أن (كورتز) كان موسيقارًا بارعًا ..

قالها الرجل ولم أر ما يدعونى إلى الشك فى هذا .. ولقد عجزت تمامًا عن فهم مهنة (كورتز) الأصلية لو كان يملك مهنة .. ولعل هذه أهم مواهبه .. لعله

رسام يكتب أو صحفى يستطيع الرسم .. لكن حتى ابن عمأه لم يستطع أن يحدد من هو .. كان عبقريًا عامًا ..

وافقت الفتى على هذا بينما انسحب فى حزن .. حاملاً بعض الخطابات والذكريات العائلية ..

ثم جاءنى صحفى كث الحاجبين يسأل عن ساعات صديقه الأخيرة .. وقال لى إن (كورتز) كان سياسيًا نشطًا ..

واعترف لى برأيه أن (كورتز) لم يكتب على الإطلاق ..

- « لكن ربّاه ! ما أبرع الرجل فى الكلام ! كان يكهرب الاجتماعات الكبرى .. كان لديه اليقين .. ألا ترى هذا ؟ كان يستطيع أن يجعل نفسه يؤمن بأى شىء .. أى شىء .. كان زعيم حزب من الدرجة الأولى .. »

- « أى حزب تعنى ؟ »

- « أى حزب .. »

ثم سألنى :

- « هل تفهم السبب الذى جعله يذهب هناك ؟ »

قلت : إننى أعرف وأعطيته التقرير إياه كى ينشره لو رآه مناسبًا .. نظر له فى لهفة وغمغم بأنه (سوف يصلح) ثم بادر إلى الفرار بما غنمه ..

هكذا وجدت نفسى مع حزمة خطابات وصورة الفتاة .. أدهشنى أنها جميلة .. أعرف أن حتى ضوء الشمس يمكن أن يكذب ، لكن ما من طريقة تخدعك بإظهار ملامح الصدق والصفاء البادية فى هذا الوجه .. يمكنها أن تصغى دون تحفظ ذهنى ولا شكوك .. بلا تفكير فى نفسها ..

قررت أن أذهب وأعطيها صورتها والخطابات ..

فضول ؟ نعم .. مع شعور آخر .. لقد انتهى كل ما كان (كورتز) .. عاجه .. خططه .. محطته .. لم تبق إلا ذكراه وخطيئته .. وقد أردت أن أتخلص من هذه أيضًا كى لا يبقى لى إلا النسيان ..

لا أعرف حقًا ما الذى أردته .. ربما هو نوع من الولاء اللاشعورى .. لا أعرف .. لاتفسير لدى .. لكنى ذهبت لألقاها ..

وعند الباب العالى ما بين المبانى الشامخة فى الشارع الساكن المزخرف ، كأنه زقاق معتنى به فى مقبرة ، رأيته على المحفة .. يفتح فمه بشدة كأنما ليلتهم كل الأرض بمن عليها من بشر ..

كان مازال حيًا كأنه ظل أكثر قتامة من ظل الليل .. ملفوفًا بعناية فى كفن الكلام البليغ ..

بدا كأنه يدخل البيت معى .. ومعه حاملو المحفة وحشد المتعبدين وكآبة الدغل .. وقرع الطبول وقلب الظلام ..

كانت لحظة نصر للبرية .. وذكرى ما قاله هناك فى وهج النيران بين الغابات الصبور ، وتلك الجمل المهشمة .. كلها عادت لى .. سمعتها بوضوح بكل ما فيها من بساطة مخيفة ..

وتذكرت ما قاله لى يومًا :

- « هذا العاج كله لى .. لايخص الشركة فى شىء فهى لم تدفع ثمنه .. أنا جمعته وخاطرت كثيرًا جدًا .. ماذا تحسب واجبى أن أفعل ؟ أقاوم ؟ لا أبغى سوى العدل .. »

لم يبغ سوى العدل ..

كررت هذه العبارة لنفسى وأنا أقف أمام باب من خشب الماهوجنى .. وإذ انتظرت شعرت بأنه يرمقنى من وراء الزجاج .. تلك النظرة التى تبدو كأنما هى تكره الوجود كله ..

كان الغسق يهبط .. وانتظرت فى غرفة فاخرة

متغطرسة بها ثلاث نوافذ ترتفع من الأرض إلى السقف ..

المدفأة من رخام أثرى ، وثمة منضدة ثمينة ..

جاءت فى ثياب سود ورأس شاحب .. تطفو نحوى فى الغسق .. كانت تلبس الحداد برغم أن عامًا مر على وفاته .. منذ بلغتها الأخبار .. لكن بدا أنها ستنعيه للأبد ..

أمسكت بيدى بين يديها وقالت :

ـ « سمعت أنك قادم .. »

لاحظت أنها ليست صغيرة السن جدًا .. ليست طفلة . كانت لديها قدرة ناضجة على الإخلاص .. على التصديق .. على المعاناة ..

وبدا كأن كل ضوء المساء الحزين قد اتخذ على جبينها ملجأه .. وكأن حاجبيها محاطان بهالة رمادية

تنظر عيناها لى من خلالها .. وكانت تحمل رأسها الحزين فى فخر بكل هذا الأسى .. وكأنها تقول :

ـ « أنا .. أنا فقط أعرف كيف أحزن عليه كما يستحق .. »

ولاحظت أنها لم تكن من تلك المخلوقات التى هى دمى للزمن يلعب بها كما يشاء .. بالنسبة لها مات (كورتز) أمس .. وقد جعلتنى أشعر بالشىء ذاته .. سمعتهما معًا ورأيتهما معًا ..

وفى هلع سألت نفسى : ما الذى أفعله هنا ؟

سألتنى أن أجلس فجلسنا ..

وضعت الحزمة فى رفق على المنضدة ، فوضعت يدها عليها .. وغمغمت بعد دقائق من صمت حزين :

ـ « أنت عرفته جيدًا ؟ »



وضعت الحزمة فى رفق على المنضدة ، فوضعت يدها عليها ..

قلت :

ـ « العلاقات الحميمة تنمو بسرعة هناك .. »

ـ « وأعجبت به ؟ من المستحيل أن تعرفه ولاتعجب به .. أليس كذلك ؟ »

قلت لها بلا راحة :

ـ « كان رجلاً مرموقًا .. »

وقبل أن تستقر عيناها على شفتى بحثًا عن مزيد من الكلمات ، استطردت :

ـ « كان من المستحيل أن .... »

ـ « .... تحبه ؟ أى صدق ! أى صدق ! لكن حين تفكر أنه ما من أحد عرفه مثلى ! نلت كل ثقته الكريمة .. عرفته أفضل من سواى .. »

كررت كلامها :

ـ « عرفته أفضل من سواك .. »

ربما فعلت .. لكن مع كل كلمة من كلامها كان الظلام يتزايد فى الغرفة .. فلم يبق واضحًا إلا جبينها الأبيض ينيره وهج الإيمان والحب ..

واصلت الكلام :

ـ « أنت كنت صاحبه .. صديقه .. لابد أنك كنت كذلك ما دام أعطاك هذه وأرسلك لى .. أشعر بأن بوسعى الكلام معك .. لابد من أن أتكلم معك .. لابد أن تعرف أننى كنت جديرة به .. ليس غرورًا .. نعم .. كنت أفهمه أكثر من أى واحد على الأرض .. ومنذ ماتت أمه لم يعد لى من أحد كى .... كى .... »

ازداد الظلام كثافة ..

لم أكن واثقًا من أنه أعطانى الحزمة الصحيحة .. ربما أراد منى أن أعنى بحزمة أخرى رأيت المدير يتفحصها بعد موت (كورتز) ..

والفتاة تتكلم بلاتوقف .. تتكلم كما يشـرب رجل ظمآن ..

كنت قد سمعت أن أهلها لم يرحبوا بـ (كورتز) .. لابد أن السبب كان فقره .. ولأسباب كهذه ذهب إلى حيث ذهب ..

كانت تقول :

ـ « كان يجذب الناس إليه عن طريق خير ما فيهم من صفات .. »

ونظرت لى فى ثبات وأردفت :

ـ « تلك موهبة العظماء .. »

كان صوتها الخفيض يلخص كل الأصوات الأخرى .. مليئًا بالغموض والحزن والأسى .. خرير النهر وحفيف الأشجار فى الريح وهدير الزحام .. وهمس من يتكلم عبر حافة ظلام أبدى ..

وهتفت :

- « لكنك سمعته .. أنت تعرف .. »

- « نعم .. »

قالتها بشيء من القنوط ..

لكنى خفضت رأسى باحترام لكل هذا الإخلاص .. لهذا النور الذى يلتمع فى الظلام .. الظلام الذى لا أستطيع أن أحميها منه .. بل لا أستطيع أن أحمى نفسى منه ..

وقالت فى كرم :

- « أية خسارة لى .. لنا ! للعالم ! »

ورأيت فى آخر ضوء للنهار الدموع فى عينيها .. دموعًا من الطراز الذى لايسقط ..

- « كنت محظوظة .. كنت فخورًا .. أكثر حظًا من اللازم .. والآن أنا تعسة .. للأبد ! »

ووقفت وشعرها الأشقر يقتنص كل الضوء الباقى فى بريق ذهبى .. فنهضت ..

- « ومن كل خططه .. من كل روعته لم يبق شىء .. سوى ذكرى لنا .. »

قلت متعجلاً :

- « لسوف نتذكره أبدًا .. »

- « ومثاله ! لسوف يقتدى به الناس دومًا كأنه الشمس .. »

- « حقًا .. »

ومدت ذراعيها لأعلى ، فتذكرت ذلك المشهد .. هناك واحدة أخرى مدت ذراعيها وهى تقف على حافة ذلك النهر فى شموخ ..

قالت فجأة :

ـ « مات كما عاش .. »

قلت وأنا أشعر بغيظ فى روحى :

ـ « نهايته كانت جديرة بحياته .. »

ـ « ولم أكن معه .. »

وبدأ غيظى يتلاشى فى شفقة لاحد لها .

قلت لها راجفًا :

ـ « كنت معه حتى النهاية .. سمعت كلماته الأخيرة .. »

قالت بصوت محطم القلب :

ـ « أعدها على مسمعى .. أريد شيئًا أعيش معه .. »

كدت أصرخ فيها :

ـ « ألا تسمعينها ؟ »

كان الغسق يرددها فى همس مستمر من حولنا :
الهول .. الهول !

قالت لى مصرة :

- « ألا تفهم ؟ أريد كلماته الأخيرة لأعيش معها !
فقد أحببته ! »

نهضت وقلت ببطء :

- « آخر كلمة قالها كانت .. اسمك .. »

شـــهقت .. ثـــم تـوقــف قلبــى لـــدى ســماع
الصرخـــة .. صـــرخـــة انتصـــــار وألـــم لايمـــكن
وصــفه :

- « كنت أعرف هذا .. كنت واثقة ! »

كانت تعرف .. كانت واثقة .. وسمعتها تبكى ..

كـــانـــت قـــد أخفـــت وجههـــا بيـــن كفيهـــا .
بـدا لـى أن البيـت سـينهــار قبــل أن أهــرب ..

أن السماء ستسقط على رأسى .. لكن لم يحدث شىء ..

وتساءلت .. ماذا لو منحت (كورتز) العدل الذى يستحقه ؟ ألم يقل إنه لم يرد إلا العدل ؟ لكن لم أستطع .. لم أستطع أن أخبرها .. سيكون الظلام أكثر مما يحتمل .. »

★ ★ ★

فرغ (مارلو) من قصته فجلس صامتًا .. فى وضع (بوذا) المتأمل ..

لم يتحرك أحد لبرهة .. وفجأة قال المدير :

ـ « لقد ضاع منا أول الجزر .. »

فرفعت رأســى لأرى أن أفق البحر تغطيـه الغيوم الكثيفة .. والمـاء يمضى إلى نهايـة الأرض تحـت سماء مدلهمة ..

كأنه يمضى إلى قلب ظلام هائل .

جوزيف كونراد – ١٩٠٢

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

روايات عالمية للجيب

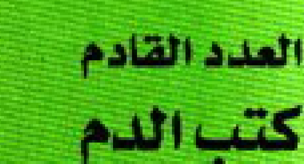
قلب الظلام

إن (كورتيز) عبقرى .. إنه رجل الرؤى .. هناك حيث يقبع وحده جوار النهر والأحراش المظلمة ، يملأ نفوس القبائل بالرعب ويملأ قبضته بالعاج .. إن (كورتيز) شاعر بطريقته الخاصة ، وعلينا أن نذهب إليه لنستمع .. لكن لابد لنا من رحلة رهيبة فى ذلك النهر الأسطورى .. لابد أن نقترب أكثر من قلب الظلام ..

45






العدد القادم
كتب الدم

